

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم الفلسفة

الموضوع:



إتيقا المناقشة

بين يورغن هابرماس و كارل أوتو آبل

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الفلسفة

إشراف الأستاذ:

- الدراجي زروخي

إعداد الطالبة:

- حيزية حفيظي

السنة الجامعية: 2016-2017

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّا كَسَبَ
فَإِنَّا نَجْعَلُ لَهُ
جُزْءًا مِمَّا كَسَبَ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

سورة البقرة الآية: 32



شكر وتقدير

الحمد لله الذي بذلته تطمئن القلوب ، وبشكره تروم
النعيم ، الحمد لله حتى الرضا وبعده الرضا ، الحمد لله على
توفيقه لي في انجازي لهذا البحث العلمي ، وأصل واسلم
على خير المرسلين ، صل اللهم وبارك عليه.

أتقدم بجزيل الشكر إلى الأستاذ الدكتور **زروخي الدراجي**
الذي تكرم علي بالإشراف على مذكرتي ، والذي لم يبخل
علي بتوجيهاته واهتماماته منذ إعداوي لحظة المذكرة ،
فجزاه الله عني كل خير.

والشكر موصول إلى كل أساتذة قسم الفلسفة بجامعة
المسييلة وعلى رأسهم الأستاذة **بورنان خيرة** ، كما لا
يفوتني أن أوجه خالص شكري إلى الأخ **حفيظي نور الدين**
على وعده لي في هذا العمل.



الرحمة الرحمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى الوالدين الكريمين

إلى عائلتي

إلى صديقاتي

إلى أستاذتي

إليكم جميعاً أهدي هذا العمل

إلى كل من قدم يد المساعدة من قريب أو بعيد



بعد خروج الحضارة الغربية من ظلمات العصور الوسطى، وانفتاحها على عصر التنوير كما اصطلح عليه عصر آمن بالعقل والعقلانية، وبإمكانية الإنسان على تسيير حياته بنفسه دون الحاجة إلى تعاليم مستمدة من أي سلطة أخرى غير سلطة العقل ذاته، وبالتالي انتقلت المركزية في العصر الحديث من الكنيسة إلى الإنسان، بعد أن همش العقل لمدة طويلة استحال فيها استخدام العقل أمام سلطة الدين، لكن الوضع اختلف تماما بعد انفتاح الإنسان الغربي على أفق جديد يؤمن بالعقلانية كسبيل لبلوغ الحقيقة، ومحك وحيد لتقدير المعارف صدقها من خطأها، وبهذا تكون الصورة الحديثة للمجتمع الغربي الذي آمن بقيم الحرية والمساواة والديمقراطية والعقلانية وغيرها من المبادئ والقيم الأخلاقية الكثيرة والكفيلة باعتقادهم برد الاعتبار للإنسان، وكرامته التي دهستها الكنيسة فأفقدته بذلك إنسانيته الحققة، وبهذا يتشكل المشروع الحضاري الذي صاغه فلاسفة الأنوار الغربيين بغية انتشار الحضارة الغربية من وحل الميتافيزيقا والتخلف الذي وقعت فيه، غير أن الحضارة الغربية اليوم تعيش أزمة خانقة تكاد تودي بها، إذ أن هذا المشروع ورغم ما حمله من قيم إنسانية إلا أنه قد حمل إلى الإنسان الكثير من الأزمات والكوارث لا على أوروبا وحدها بل على العالم أجمع، فبدل أن تحمل تلك القيم والمبادئ الإنسانية إلى مستوى إنسانيته الحققة، وتحريره من كل أشكال الدوغماتية والتسلط الذي مارسته الكنيسة باسم الدين وكلمة "الرب" أصبح الإنسان بفعل الحداثة والعقل التنويري خاضعا لسلطة أخرى باسم العقل والعقلانية، والتي باتت تشهد نوعا من المغالاة، وتمارس تسلطا واستبدادا من نوع آخر، حيث أصبح ينظر إلى العلم والعقل كأداة لتحكم في الطبيعة وإخضاعها لكائن العقل، بل وتقييد الطبيعة الإنسانية وطمس معالمها وقتل دوافعها الغريزية، والتركيز على جزء منها فقط وهو العقل، ليقع الإنسان من جديد ضحية لسلطة جديدة ألا وهي سلطة العقل الآداتي، وذلك من خلال ربط المعرفة بالمصلحة التي تحققها أو تجلبها، فانعكس ذلك سلبا على الإنسان والمجتمع على حد سواء حيث أصبح الإنسان اليوم يعيش نوع من الاضطراب داخل أسرته ومجتمعه بل وأحيانا اتجاه ذاته، فبفعل المنجزات التقنية والتطورات التكنولوجية التي اجتاحت العالم، ورغم ما لها من إيجابيات إلا أنها جعلت الإنسان ينطوي داخل ذاته، ويتجاهل الآخر بكل أبعاده، فانتشر في مقابل ذلك

كل أنواع الظلم والتسلط والعنف التي رأى بعض المفكرين أنها تعود إلى غياب الخطاب العقلاني الذي يفقد بدوره إلى قوة الحجة والبرهان كسبيل للإقناع، مما جعل بعض الفلاسفة يعيدون التفكير في هذا الواقع والبحث عن الآلية الحقيقية الكفيلة بانتشال المجتمع من هذه الأوضاع التي يتخبط فيها، فكان العقل التواصلي والذي يعتمد على الحوار والنقاش هو إحدى الآليات التي رأى بعض الفلاسفة أنها الأداة الوحيدة القادرة على إعادة الهيكلة السليمة للمجتمع وتصحيح مسار العقل حتى يكمل مشروعه الذي لم يكتمل، وبالتالي استعادة العقل التنويري بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

ولأن التواصل ليس نشاطا عشوائيا بل هو نشاط خاضع لجملة من المعايير والشروط التي تضمن تحققه بالشكل الصحيح، وتحرص على بلوغه لأهدافه ألا وهي تحقيق التفاهم والاتفاق، فقد استند كل من كارل أتوا آبل و زميله يورغنهابرماس _ و هما من ابرز دعاة هذا التوجه _ إلى منجزات فلسفة اللغة والأبحاث اللغوية المعاصرة بإضافة إلى ميادين العلوم الإنسانية (علم النفس، وعلم الاجتماع) في تأسيس لتداولية خاصة تحرص على تحقيق إتيقا للمناقشة يلتزم بها الأفراد أثناء حوارهم ونقاشهم حول قضايا ما، ورغم التوافق الجلي بين كلا منهما إلا أن هناك العديد من مواطن الاختلاف بينهما فحين أسس هابرماس ما يعرف بالتداولية الصورية، أسس آبل بدوره لتداولية جديدة ذات طابع ترسديتالي، وفي خضم هذا البحث المتواضع سنحاول النظر في أفق الفلسفة التواصلية من خلال الاطلاع على فلسفة كل منهما على حدة بالتحليل، بالتحديد ما يتعلق بموضوع إتيقا المناقشة، وفي سعينا هذا سنحاول الإجابة عن الإشكالية التالية:

هل يمكن أن نعتبر العقل التواصلي بحق وحده كفيل بإخراج الحضارة الغربية من مأزق العقل الأداقي الذي سيطر عليها؟ وهل إتيقا المناقشة (التواصل) كفيلة بإنجاح الفعل التواصلي أو النشاط التواصلي والوصول به إلى أهدافه الحقيقية؟ وما هي طبيعتها؟ وأين تتجلى مواطن الاتفاق والاختلاف في أفق هذه الفلسفة التواصلية بين مشروع التداولية الصورية لهابرماس والتداولية الترسديتالية لآبل؟

بالإضافة إلى هذه الإشكالية تصادفنا بعض الأسئلة التي تطرح نفسها في هذا السياق والتي تتمثل في:

- كيف استثمر كل من هابرماس وآبل الإرث الفلسفي السابق في تأسيس تداوليتيهما؟ وكيف تم استثمارها في سياقات فلسفية مختلفة؟

ولم يكن اختيارنا للموضوع اختياراً اعتباطياً بل كان نابعا من رغبتنا الملحة في الإطلاع على آخر الأطروحات الفلسفية التي تقدمها الفلسفة الغربية، وخاصة بعد تسبب العقل الحدائثي أو المشروع التنويري وانعطافه عن مساره الصحيح وظهور فلسفة ما بعد الحدائث، وظهور النظرية النقدية أو " مدرسة فرانك فورت" هي الأخرى في الفضاء الفلسفي واهتمامها الكبير بتحليل الواقع الاجتماعي الغربي، ومحاولة تقديم مخرج من هذه الأزمة التي تطال الإنسان ذاته، هذا من الناحية الذاتية.

أما العوامل الموضوعية فتتمثل في قلة الدراسات بهذا الموضوع في حد ذاته أي المتعلق بإتيقا المناقشة على وجه الخصوص وخاصة من جانب فلسفة كارل أتوابل والذي لا تقل أهمية هو الآخر عن الرعيل الأول يورغنهابرماس.

والمهدف المرجو منه هذه الدراسة هو معرفة مدى فاعلية إتيقا المناقشة في تفعيل النشاط التواصلية وتحقيقه لمطالبه المتمثلة في تحقيق التفاهم والاتفاق، ومن جهة أخرى تميز نقاط الاتفاق والاختلاف التي تلف إتيقا المناقشة التي نادى بها آبل وكذا صديقه هابرماس.

وكأي بحث علمي فقد واجهتنا مجموعة من الصعوبات والعوائق في إنجازنا لهذا البحث نذكر منها نقص الكتب المترجمة الخاصة بكارل أتوابل مقارنة مع زميله هابرماس، ومن ناحية أخرى نقص الدراسات حول هذه الشخصية، فرغم أن آبل هو الآخر من أهم ممثلي مدرسة فرانكفورت في جيلها الثاني إلى جانب الرعيل الأول هابرماس إلا أننا لا نكاد نجد دراسة واضحة حوله باستثناء بعض التلميحات، فالدراسات نادرة جدا إن لم نقل منعدمة، ونذكر منها دراسة قامت بها الباحثة " جميلة حنيفي" في جامعة الجزائر وهي أطروحة دكتوراه جاءت تحت عنوان " يورغنهابرماس من الحدائث إلى المعقولية التواصلية" وقد أشارت من خلالها إلى بعض ملامح الترابط الموجودة بين فكر كل من هابرماس وآبل، أما من ناحية المؤلفات فالأمر سيان فهي قليلة

جدا نذكر منها مؤلف مدرسة فرانكفورت النقدية "لحسن مصدق" أما الدراسات المترجمة فنذكر منها: مؤلف "فلسفة التواصل" لجان مارك فيري" وهو من أهم المؤلفات التي اهتمت بهذا الموضوع، ولتحصيل غايتنا من هذا البحث اعتمدنا على مصدرين أساسيين وهما: "إتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة" لمؤلفه "يورغن هابرماس" أما المصدر الثاني فهو لـ "كارل أوتو آبل" تحت عنوان "التفكير مع هابرماس ضد هابرماس" الذي وضع فيه النقاط التي تركز عليها مقارنته مقابل مقاربة هابرماس، ولذلك كان اعتمادنا عليهما بشكل كبير.

وفي بحثنا هذا اعتمدنا على المنهج التحليلي بإضافة إلى المنهج الجدلي المقارن، أما المنهج التحليلي فقد تجلّى في تحليلنا لأفكار كل من هابرماس و كارل أوتو آبل، وذلك حتى نستطيع تحقيق الفهم والإدراك الجيد للأطروحة كل منهما بما تعلق بإتيقا المناقشة على وجه الخصوص، أما المنهج الجدلي المقارن فقد تجلّى اعتمادنا عليه في استنباط نقاط الاتفاق والاختلاف التي يمكن أن نلمسها في إطار فلسفة التواصل و إتيقا المناقشة على وجه التحديد بين كل منهما، ووعينا بهذا الموضوع أكثر في هذا الإطار، إضافة إلى اعتمادنا على المنهج النقدي والذي لم يكن اعتمادنا عليه بارزا، وذلك سعيا منا لتوضيح بعض الأفكار والنظر إليها من الجوانب الأخرى.

و للإجابة عن الأسئلة التي تم طرحها، وبناء على طبيعة الموضوع في حد ذاته، فإننا ارتأينا تقسيم هذا البحث إلى ثلاث فصول أين جاء الفصل الأول بعنوان "إتيقا المناقشة عند يورغن هابرماس" وقد اندرج فيه ثلاثة مباحث تناولنا فيها توضيح لبعض المفاهيم التي يمكن أن تحول دون فهمنا للموضوع، ثم تطرقنا إلى اللغة ودورها في الحوار وكأداة لتحقيق التفاهم، ثم تناولنا في المبحث الثاني كيف أسس هابرماس التداولية الصورية، في حين جاء المبحث الثالث مبيّنا دور أخلاق المناقشة في عقلنة العالم المعيش، وإذا اقتصر الفصل الأول عن الحديث حول إتيقا المناقشة لهابرماس، فقد جاء الفصل الثاني تحت عنوان "إتيقا المناقشة عند كارل أوتو آبل" واندرج في ضمنه ثلاث مباحث، تحدثنا في المبحث الأول عن المرجعية الفكرية لأخلاقيات المناقشة عنده، كما تطرقنا أيضا إلى التداوليات اللسانية وكيف استثمرها في بناء التداولية الترسدنتالية، في حين جاء

المبحث الثالث عبارة عن توضيح لمقاربة آبل كنفويض للنزعة العقلانية النقدية التي كان لها كلام آخر حول مفهوم التأسيس النهائي الذي يسعى آبل للدفاع عنه.

وبعد أن قمنا في الفصلين السابقين عن الحديث حول إتيقا المناقشة التي أسسها كل من هابرماس وآبل ارتأينا أن يأتي الفصل الثالث تحت عنوان "هابرماس في فضاء كارل أتو آبل" وبيننا فيه جملة من النقاط التي أيد آبل فيها زميله كمبحث أول، في حين جاء المبحث الثاني لتوضيح مواطن الانتقاد الموجهة لهابرماس من قبل آبلأما المبحث الثالث فقد تناولنا فيه التجاوز الذي قامت به مدرسة فرانكفورت على يد الجيل الثالث، من إتيقا المناقشة إلى إتيقا الاعتراف.

لنصل في نهاية البحث إلى استنباط جملة من النتائج كانت بمثابة خاتمة لبحثنا المتواضع.

الفصل الأول:

إتيقا المناقشة عند يور غنهايرماس

إتيقا المناقشة عند يورغنهابرماس

يبدو أن حاجة الإنسان إلى الأخلاق أمر ضروري حتى يستقيم سلوكه ويرتقي بذلك إلى مستوى الإنسانية، فبفضل الأخلاق يستطيع الإنسان أن يحقق لنفسه الرضى النفسى والاجتماعى، فهي تعمل على تقويم شخصية الإنسان وإزالة كل ما من شأنه أن يحط من قيمتها ويرجع بها أدنى الدرجات، هذا إذا تحدثنا عن الأخلاق في إطارها الضيق الذي يتجلى في علاقة الإنسان مع ذاته، غير أن الأمر يزداد اضطراباً وتزداد حاجة الإنسان إلى الأخلاق عندما يتعلق الأمر بإطار أوسع وهو علاقة الإنسان بالآخر، ففي إطار هذه العلاقة الثنائية الغيرية تتجلى العديد من السلوكيات والمعاملات بين الأفراد، ومن أبرز وسائل التعامل بينهم وآلياته "الحوار" غير أن الواقع الذي أصبحنا نعيشه اليوم جعل من هذه الآلية تتراجع إلى الوراء لتحل محلها آليات أخرى كالعنف والاستبداد والتسلط بفعل عدة عوامل وفي مقدمتها التطورات العملية والتقنية، راح المجتمع ينحل إلى أجزاء لا متناهية فقدت أوصل الترابط فيما بينها، مما استدعى الأمر إلى إعادة طرح موضوع الحوار كآلية مثلى كفيلة بإخراج المجتمع من وحل التفكك والانحلال، وكننتيجة لهذا بات الحديث عن أخلاقيات الحوار أمراً في غاية الأهمية بل أصبح مبحثاً مهماً يتناوله الفلاسفة والمفكرون، وسنحاول في هذا الفصل التطرق إلى مجموعة من العناصر المركبة لهذا الموضوع، حيث سنعرج بداية عن اللغة ودورها كأداة للحوار وآلية في نفس الوقت من آليات التفاهم كما نتطرق أيضاً إلى التداولية الشكلية كما أسسها هابرماس وعلاقتها بإتيقا المناقشة، أما المبحث الأخير فنتطرق فيه إلى أخلاقيات المناقشة وعقلنة العالم المعيش باعتبار أن هذه الأخيرة هي غاية الفلسفة التواصلية عند هابرماس.

المبحث الأول: اللغة كآلية للحوار وأداة للتفاهم.

يجدر بنا في البداية قبل الدخول في الموضوع والحديث عن اللغة والحوار أن نضبط بعض المصطلحات التي قد تبدو متداخلة وذات علاقة ببعضها ألا وهي مفهوم الحوار والتواصل.

أولا/ ضبط المفاهيم:

1- مفهوم الحوار: (Dialogue)

ورد تعريف الحوار في المعجم الفلسفي لجميل صليبا على أنه: من الفعل حاوره محاوره وحاوره جادلهمقال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُ﴾، والمحاوره المجاوبه، أو مراجعة النطق والكلام في المخاطبة، والتحاوور التجاوب، لذلك كان لا بد في الحوار من وجود متكلم ومخاطب، ولا بد فيه كذلك من تبادل الكلام ومراجعته¹ وقد جاء في لسان العرب لابن منظور على أنه من الفعل "حور" الذي يعني الرجوع إلى الشيء وإلى الشيء والمحاوره المجاوبه والتحاوور، التجاوب.²

أما من الناحية الاصطلاحية فالمعنى لا يختلف كثيرا عن المعنى اللغوي فالحوار في حقيقته كلام يدور بين طرفين أو أكثر يتناوبان السؤال والجواب، ويسمى طرفا الحوار متكلم ومخاطب يتبادلان الحديث حول قضية معينة تسمى بالخطاب المشترك "إذ يعد الحوار أحد الأساليب المستخدمة في أي خطاب إنساني"³ مع الإشارة إلى تنوع أصناف الخطاب الإنساني بين الخطاب الديني، الاقتصادي، السياسي والفلسفي، وقد ورد كذلك تعريف الحوار على أنه "حديث يجري بين أكثر من فرد سواء كان في الشارع أو في البيت، وقد يتجلى الحوار في صورة مطبوعة أو ما يصطلح عليه بالكلام المطبوع (أي المكتوب) ومثال ذلك صحيفة أو مجلة"⁴ حينما يرد فيها عرض الأطروحات ونقاد ومناقشين، فعندما يقرأ الإنسان تلك المقالات يشعر وكأنه يتحاوور معها.

¹ - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط01، 1982م، ص 501.

² - ابن منظور، لسان العرب، ج3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1999، ص 384.

³ - مني أبو الفضل وآخرون، الحوار مع الغرب: آلياته - أهدافه - دوافعه، دار الفكر، دمشق، ط01، 2008م، ص 67.

⁴ - عبد القادر الشبخلي: أخلاقيات الحوار، دار الشروق، الأردن، ط01، 1993م، ص 12.

وقد عرّف الحوار على أنه "التبادل السلمي للأفكار والآراء والمعلومات سواء كان ذلك بواسطة الكلام أو غير الكلام، وهو يتجلى في أشكال مختلفة منها المفاوضات، المناقشات، المناظرات والمحادثات، والأصل فيه أنه تبادل ثنائي الاتجاه بين طرفين أو أكثر، يتناوب كلا دور المرسل والمستقبل بأقدار متساوية أو شبه متساوية لكن ليست متساوية بالضرورة".¹

ومن هنا يتضح لنا أن الحوار بالفعل أرقى أشكال التواصل التي يمكن للإنسان أن يتواصل بها وهو يقوم على ثلاث أطراف وهي: المتكلم والمخاطب يتناوبان بينهما الأدوار، وكذلك الطرف الثالث وهو مضمون الحديث أو ما يصطلح عليه بالخطاب المشترك بين المتحاورين.

2- مفهوم التواصل (Continuité)

لقد ورد مفهوم التواصل في موسوعة عبد الرحمان بدوي على معاني:

أ- معنى عام: ويعنى به متواصل بلا ثغرات.

ب- معنى فلسفي: يكون متصلا كل مقدار لا يكون مكونا من عناصر مميزة أي لا يكون مائلا للفكر بواسطة عناصره ولكنه يستطيع قبولهما من خلال عملية الفكر.²

ولقد عرفته جاكلين روس* على أنه ذلك التبادل بالإشارات أو الرسائل الذي يجري بين شخصين أو أكثر بين فرد وفرد أو جماعة وجماعة³، ولا يمكن الحديث عن التواصل إلا في خضم الحديث عن الحوار أو النقاش باعتبار أن كلا منهما آلية نعتمدها في التواصل، فالتواصل يقتضي نوعا من العلاقة التبادلية بين طرفين ذات موضوع، أو بمعنى أدق بين أنا وآخر مع فهم هذا الآخر باعتباره "أنت" أي شخص مخاطب قادر بذاته

¹ - عبد القادر تومي، من ثقافة الحوار إلى واقع الصراع في زمن العولمة، مجلة الحكمة، العدد التاسع، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، 2011م، ص 33.

² - أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط02، 2001م، ص 221.

* - جاكلين روس: ولدت سنة 1949 وهي أكاديمية بريطانية وأستاذة اللغة الإنجليزية في كلية "الملكة ماري" بجامعة لندن.

³ - جاكلين روس، الفكر الأخلاقي المعاصر، تر: عادل العوا، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، ط01، 2001م، ص 49.

على أن يتحدث أو يشارك في الحوار¹، وبفضل هذه العملية التواصلية القائمة على التفاعل والتبادل بين أطرافها من خلال آلية الحوار والمناقشة حتى يتسنى للمتداولين الوصول إلى اتفاق حول هذا الموضوع الذي يتناقشون حوله.

إن التواصل فيما يرى بعض الباحثين هو جعل شيء مشترك أي الانتقال من الحالة الفردية إلى الحالة الجماعية، أو الاجتماعية عبر الفعل اللازم "اتصل" والذي يتضمن من بين ما يتضمن الإخبار والإبلاغ والتخاطب كما يقوم بنقل الرسائل والرموز المحملة بالدلالات المملوءة بالإحساءات.

وإذا ما تأملنا في هذا التعريف نجد أنه لا يختلف نهائياً على المفهوم الذي يقدمه هالبرت ميد** حين نظر إلى التواصل على تدخل للآخر في تكوّن الأنا والهوية وبنائها، إن الأنا بالمعنى الترسدنتالي المكتفي بذاته لا مكان له في عالم التواصل، والوعي في نظره إمكان وليس بناء قبلياً، فلا تحقق للوعي خارج التفاعل الاجتماعي، خارج التواصل ولا في الاستقلال عن بقية أعضاء المجتمع.

وبناء على هذا التمييز اللفظي بين المصطلحين التواصل والحوار باعتبارها مفهومين قريبين من بعضهما يتضح لنا أن التواصل ذا طابع شمولي واسع، ويتضمن في أفقه الحوار، أو بصيغة أخرى يعتبر الحوار إحدى آليات التواصل المتعددة التي يعتمدها الإنسان، ويمكن النظر إلى الحوار على أنه أهم خاصية في الفاعلية التواصلية لاقتصاره على الإنسان لا غير، بفضل اعتماده على المناقشة القائمة على أساس الخطاب الذي تشكله اللغة _ المقصود هنا اللغة العادية -.

3- التواصل في الحضارة الغربية:

بعد تلك الثورة التي قام بها العقل الغربي على الكنيسة ليكتب بذلك لنفسه حياة جديدة متحررة تماماً من كل القيود الميتودولوجية التي قيدت العقل الغربي لمدة طويلة، ووضعته تحت جبروت الكنيسة

¹ - سعيد توفيق، في ماهية اللغة وفلسفة التأويل، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2001م، ص 154-155.

** - هالبرت ميد (George H;Mead) 1863-1931: فيلسوف أمريكي اشتهر في علم النفس الاجتماعي ومؤسس النظرية التفاعلية الرمزية من أهم مؤلفاته العقل والنفس والمجتمع.

ورجالها ليتحرر بعد ذلك العقل بفضل الأفكار التي قدمها الفلاسفة والمفكرون وأولها الكوجيتو الديكارتي "أنا أفكر إذا أنا موجود"، فبفعل هذه المقولة أعيدت المركزية إلى الإنسان باعتباره الفاعل الوحيد في الكون لا المنفعل فيه، وإلى جانب أفكار الفلاسفة نجد كذلك ثورات قام بها رجال مكافحون من أجل ردعهم تلك السلطات المتجبرة والثورة الفرنسية لخير دليل على ذلك، هنا وأمام هذا التغيير أعيد للعقل قيمته بل للإنسان بصفة عامة كرامته التي دهستها الكنيسة، حيث جردته من أهم ميزة له ألا وهي ميزة العقل، فما الإنسان إلا كائن عاقل كما يذهب إلى ذلك أرسطو. وغياب العقل يعني غياب الإنسان لتدخل بذلك أوروبا عصرا جديدا هو عصر التنوير والتجديد خارجة بذلك من عصر الظلمات التي أثقل كاهلها مقبلة على عصر جديد يصطلح عليه لدى الباحثين بعصر الحداثة، هذه الأخيرة الذي كان بمثابة مرحلة حاسمة بالفعل في تاريخ الحضارة الغربية وذلك لما أفرزه من نتائج على المستويين الإيجابي والسلبي.

فالحداثة التي طالما آمنت بالعقل وبقدرته في السيطرة على الطبيعة والتحكم في التقنية والتكنولوجيا بالفعل قد حققت الكثير من الإنجازات ليس للحضارة الغربية فقط بل للعالم أجمع، وكان من بين أهم إفرازاتها ما يعرف بالعمولة، هذه الأخيرة التي تسعى إلى جعل الجميع تحت راية واحدة، ويعيشون على نمط حياتي واحد فأصبح العالم بموجبها قرية صغيرة، تقاربت فيها جميع الأبعاد متجاوزة بذلك الحدود الجغرافية والسياسية.

غير أن إيمان فلاسفة التنوير بالعقل أوقعه في دوامة كبيرة أصبحت تهدد الإنسان ذاته بغض النظر عن الطبيعة والعالم الذي يحويه، أصبح الإنسان يعاني بسبب العقل وباسم العقل، فتحول كل شيء إلى أشياء تقاس كماً بما في ذلك الذات الإنسانية بدأت تتراجع بذلك إلى الوراء وبخطوات ثابتة بدلا من أن تسير إلى الأمام في حياة ملتها الأمل والتفاؤل، فالتركيز على الجانب التقني المادي جعل الإنسان نفسه يتحول إلى مادة أو كما

وصفه ماركيزوز* "الإنسان ذو البعد الواحد" فأصبح هذا العالم يشبه عالم البحر القوي فيه يأكل الضعيف لا مجال فيه للتوافق أم للتفاهم السلمي، فالغلبة والحق دائما في يد الأقوى، ونعني بالأقوى هنا الأقوى ماديا، فمال بذلك الإنسان إلى كفة العقل الأداقي الذي يخدم التكنولوجيا ويسعى للسيطرة والتحكم في الطبيعة والتقنية، بدلا من تحقيق مصلحة الإنسان وتحقيق راحته.

ولأن الفيلسوف هو دائما وليد بيئته يستقي أفكاره من العالم الذي يعيش فيه ويشعر بالآلام ولذات أمته والفيلسوف الأوروبي كثيرا ما نجده يقدم خطابه بحسب ما يتوافق مع واقعه، وبفعل بروز ما يعرف بالعمولة وإفرازاتها على جميع الأصعدة بحديها، فقد تغيرت ظروف وشروط إنتاج الخطاب الفلسفي ذاته، فحياة الفلاسفة وخطاباتهم الجديدة تسير اليوم على إيقاع فعاليات الجمعيات الفلسفية والمجالات المتخصصة والندوات والمؤتمرات الفكرية والدولية، وتكاد تكون اليوم مهجورة تلك المسائل الفلسفية الكبرى التي ظلت المنبع الذي يمد الفكر الفلسفي بالحيوية منذ العصر اليوناني، فقد حلت مكانها اهتمامات أخرى جديدة ربما لم تخطر من قبل على بال الفلاسفة السابقين¹ فالمسائل الفلسفية والقضايا الكبرى هي دائما متجددة وفقا لمقتضيات العصر ومتطلباته بفعل المتغيرات الكبرى التي يحتويها.

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا في هذا الصدد أن إشكالية التواصل باتت بالفعل من أهم المواضيع التي يطرحها الفكر الفلسفي المعاصر ويناقشها الفلاسفة بشغف واهتمام كبير، لا لشيء سوى لتلك الاختلالات التي شهدتها العلاقة بين أفراد المجتمع الواحد من انقطاعات وانفصال أصبح الواحد غريب عن الآخر، بل وأحيانا غريبا حتى عن نفسه، في زمن انطوى فيه كل واحد على ذاته مشكلا عالمه الخاص، فقد بالفعل الإنسان تلك الروابط القوية والثيقة بين الأفراد، فبات الإنسان في ظل هذا يعيش في إطار مفارقة خطيرة جدا، فعندما تطورت

* - هيربتماركيزوز (H. Marcuse): فيلسوف ومنظر سيكولوجي وعالم اجتماع ومن أبرز ممثليه مدرسة فرانك فورت النقدية وهو من مواليد مدينة

برلين عام (1898-1967)، وله عدة مؤلفات نذكر منها: الإنسان ذو البعد الواحد، العقل والثورة، الحب والحضارة.

¹ - عبد الرزاق الدواي، الفلسفة في عهد العمولة، وتكنولوجيا المعلومات والاتصال الجديدة، مجلة علم الفكر، العدد الثاني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، 2012، ص 175.

وسائل الاتصال وأصبحت أكثر تقدماً تساهم في ربط أوصل العالم بأسره وليس أفراد المجتمع الواحد فحسب، بل تجاوزت المجتمع وحدوده الجغرافية، السياسية، اللغوية، الدينية والاقتصادية. ولكن من جهة أخرى كانت الأواصل الاجتماعية تزداد تباعداً وتنافراً حتى أصبح أفراد الأسرة الواحدة يشعرون باغتراب كل اتجاه الآخر، فقدوا التواصل بآتم معناه.

وعندما تتفكك تيارات التواصل هذه، أو تتصلب أو تنهار مشاركة التفاهم بين الذات، فإن شرط الاستمرار في الحياة يتعرض إلى الخطر.¹

وتعود جذور هذا الانفصال على حد اعتقاد بعض الباحثين إلى فلسفة الذات أو الوعي والتي تعود هي الأخرى إلى الفيلسوف الفرنسي رونييه ديكارت خاصة حين عرض أطروحة الكوجيتو: "أنا أفكر إذا أنا موجود" برغم أن هذه المقولة كانت سبباً في قلب أوروبا وتوجيهها إلى مسار الأنوار إلا أنها فتحت الأبواب أمام اعتقاد آخر، فإذا كان لا يعطي المركزية للكنيسة فإنه أعطاها في المقابل للذات وحدها، حيث لا وجود إلا للذات أو "الأنا" الذات المفكرة على حد اعتبار ديكارت.

فعقلانية ديكارت أسفرت عن هوية منغلقة على ذاتها كما أدت إلى التخصص الدقيق في المعارف وهو ما أدى إلى ثنائيات مختلفة بين النفس والجسد، الذات والموضوع، الأنا والآخر وغيرها، بحيث أصبح هذا الفصل ذاته تبعاً لمقتضيات الحداثة ضرورياً بل ومنهجياً لا غنى عنه لإدراك الحقيقة باسم الموضوعية العلمية.²

إذاً وأمام هذا العالم متقطع الأواصل فقد ظهرت عدة آراء ونظريات فلسفية تحدد موقفها من الحداثة وإفرازاتها التي باتت تنقلنا إلى عالم المجهول، غير قادرين حتى على التنبؤ بنتائجه، فعلى سبيل المثال نجد رواد الجيل الأول من مدرسة فرانك فورت يقترحون حلاً مفاذه القضاء على هذا العقل الأداتي والتخلي عنه باعتباره

¹ - يورغنهارماس، المعرفة والمصلحة، ترجمة حسن صقر، منشورات الجمل، ألمانيا، ط1، 2001، ص 110.

² - مجدى عبد الحافظ، موقع العقل في فلسفات ما بعد الحداثة، مجلة عالم الفكر، العدد الثاني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2012م، ص 161.

السبب الوحيد والأول في تدمير البشرية وتحصيلها للآلام التي يعانها اليوم، وفي مقدمتهم هوركهايمر* وماركيوز وأدورنوا**.

وفي مقابل هذا الرأي الذي ملئه التشاؤم نجد موقفاً آخر أكثر تفاءلاً، ينظر إلى الواقع بعين ثابتة ملئها التفاؤل والإيمان بقدره هذا العقل على التغيير والتغير، مؤكداً في الوقت نفسه أنه لا يمكن على الإطلاق أن ننكر تلك الأزمات التي جعلت الإنسان يتراجع إلى الوراء، وقارب على إنهاء إنسانيته بيديه من حروب وجرائم (الحريين العالميتين الأولى والثانية)، ملغية بالفعل كل معنى للإنسانية، لتتوج نهاية هذا المسرح الدموي بقنبلتين ذريتين (هيروشيما وناكا زاكي).

غير أن الأمر من وجهة نظرهم ليس مبرراً على الإطلاق أن تكون كل هذه الأحداث مصوغاً للقضاء على العقل، بل لابد من البحث عن أساس جديد نفعل من خلاله ذلك العقل حتى يسترشد ويرجع إلى طريقه الصحيح، ووضعه في الإطار الذي من خلاله يكمل مشروعه الذي بدأه، وهو خدمة الإنسان وتحقيق راحته وقد كان من ضمن الحلول المقترحة للخروج من أزمة الحداثة هذه هو العقل التواصلي، هذا العقل الذي حاول من خلاله بعض الفلاسفة وخاصة فلاسفة الجيل الثاني من مدرسة فرانك فورت أن يجعلوه عقلاً يسعى أن يجعل من الحداثة تكمل مشروعها الذي لم يكمل داخل إطار سليم.

وعند الحديث عن هذا الموضوع فإننا نقف عند أهم مفكر على الإطلاق في الفترة المعاصرة الذي تناول موضوع التواصل بكل أبعاده، وتأسيسه للفعل التواصلي الذي حل محل العقل الأداتي ألا وهو الفيلسوف

* - هوركهايمر ماركس (M.Horkheimer) فيلسوف ألماني واد. بمدينة شتوتغارت في ألمانيا في عام 1895 من عائلة ميسورة الحال، اهتم بدراسة علم النفس والفلسفة، ناقش أطروحته للدكتوراه حول الفيلسوف الألماني "كانط" والتي عنونت بـ "مساهمة في تناقض ملكة الحكم الغائية" نوقشت عام 1922، وقد مثل هوركهايمر ثاني مدير لمعهد البحوث الاجتماعية والذي يعرف بمدرسة فرانكفورت النقدية، توفي عام 1973.

** - ثيودور أدورنو (Th.Adorno) فيلسوف وموسيقي ألماني يندرج من أسرة موهوبة في مجال الفن عموماً والموسيقى على وجه الخصوص ولد بمدينة فرانكفورت عام 1903، تميز بتفكيره الموسوعي، حيث نجده قد اطلع على مجالات معرفية متنوعة، الفلسفة، علم الاجتماع، علم النفس بجامعة فرانكفورت وختم حياته عام 1969.

يورغنهابرماس* والحديث عن هابرماس في إطار العقل التواصلي وبتحديد فيما يتعلق بإتيقا** المناقشة لا يكون إلا من خلال التعرض كذلك لأفكار صديقه كارل أُو آبل.

فيفضل هذان الفيلسوفان اللذان يمثلان فلسفة التواصل في الفكر الغربي على وجه العموم ومدرسة فرانك فورت على وجه الخصوص، بفضل فلسفتهما حول التواصل ذلك من خلال وضع أسس فلسفية جديدة تريد أن تكون عقلانية نقدية تواصلية، وقد حددت إشكالية هذا العقل في أخلاقيات الحوار والمناقشة وذلك أن الحوار عندما يستند إلى أخلاقيات تكون مبادئها التسامح، والاعتراف بالحق في الاختلاف، فإن ذلك قد يسهم فعليا في هئية أجواء معنوية وفكرية ملائمة تشجع على قبول مراجعة الآراء والمواقف القبلية وممارسة النقد والنقد الذاتي¹ وسنحاول في هذا الفصل أن نوضح كيف تتجلى إتيقا المناقشة عند هابرماس داخل إطار نظريته الكبرى نظرية التواصل من خلال التطرق إلى جملة من العناصر.

* - يورغنهابرماس: (YurgenHabermes)، (1929) فيلسوف ألماني ولد بمدينة دوسلدوف، يعتبر من أهم ممثلي مدرسة فرانكفورت في جيلها الثاني اشتغل في عدة مناصب منها مساعد معهد البحوث الاجتماعية بجامعة فرنكفورت بين عامي 1961-1964 ، أستاذ للفلسفة وعلم الاجتماع في جامعة هايزربرغ، 1964 مدير معهد ماكس بلانك 1972، مرت حياته الفكرية بمرحلتين أساسيتين المرحلة النقدية التي توجه فيها بنقده للطابع التقني والوضعي أما المرحلة الثانية فتمثلت في التأسيس ليما يسمى بالعقل التواصلي الذي يعد البديل على العقل الأداتي التقني هذا العقل الذي يقوم على أساس التفاعل الاجتماعي.

** - إتيقا (éthique) كلمة يونانية مستمدة من الإرث الأرسطي ويقصد بها الاختيارات الأكسيولوجية الذاتية، في حين تعني كلمة أخلاق merale وهي في الأصل لاتينية مستمدة من الإرث الكانطي، وتعني جملة القواعد والقيم الناظمة لسلوك الإنسان إزاء ذاته والمجتمع، وهناك من نظر إلى الإتيقا éthique أنها وثيقة تحدد المعايير الأخلاقية والسلوكية المطلوب أن يتبعها أفراد جمعية مهنية، أما éthic فقد نظر إليها علم الأخلاق أو نظرية الأخلاق لفهم معنى الخير والشر والعدالة والواجب، أنظر: مصطفى حسنية، المعجم الفلسفي، دار أسامة، عمان، ط1، 2009، ص 40- 74، أما لالاند فقد عرفها أنها علم موضوعه الحكم التقويمي القائم على التمييز بين الخير والشر مبينا التمييز بين ثلاثة مفاهيم وهي: الأخلاق: هي جملة التعاليم المسلم بها في عصر ومجتمع محدد، العلم العملي: موضوع سلوك الناس وحتى الكائنات الحية، علم الأخلاق: ويقابله (éthique) وهو العلم الذي يتخذ من الحكم التقويمية موضوعا له والتي تهتم بدورها بالتمييز بين الخير والشر، أنظر: موسوعة لالاند الفلسفية، ص 371.

¹ - عبد الرزاق الداوي، الفلسفة في عصر العولمة وتكنولوجيا المعلومات والاتصال الحديثة، ص 180.

ثانيا: اللغة كأداة للتفاهم.

يقول " أولفيروبول" في تعريفه للإنسانية " لقد حددنا الإنسانية بثلاثة قيم التواصل، والمساواة والتضامن الذاتي"¹ وما يتضح جليا في تعريف روبول للإنسانية أن المرادف الأول لمفهومها هو التواصل، لا لشيء سوى لأنه إمكانية إنسانية بحت، تقوم على أساس الحوار والمناقشة، وأساسا لتحقيق التفاهم والحوار ولأن التواصل أشمل من كل القيم الأخرى بل هو المبدأ الأول والأساسي الذي تبني عليه القيم الأخرى أو تنبثق منه ولهذا السبب أقر روبول أن التواصل ينتمي من حيث المجال إلى الإتيقا لا إلى الأخلاق ذلك أن التواصل مبدأ وليس قيمة.

و إذا كان مطلب كل موقف تواصلية هو إيجاد حل يكون بمثابة مخرج من سوء الفهم وعدم الاتفاق فلقد أولى هابرماس وكذا صديقه آبل دورا بالغ الأهمية واهتماما لا بأس به للغة، حين أكدوا أن الفعل التواصلية يعتمد بدرجة أولى على اللغة باعتبارها الوسيلة الأساسية، والتي من خلالها يمكن أن نصل إلى تحقيق التفاهم والاتفاق كما يمكن في الوقت ذاته أن تكون وسيلة لسوء الفهم فهي سلاح ذو حدين، والحديث عن اللغة أشمل من كونه حديث عن جملة من الرموز أو القواعد النحوية وتركيبية.

إذا اللغة تتجاوز هذا الحد بكثير فهي قد تكبل أو تدفع نحو نمط حياة معين أي مجموعة من الممارسات والتقاليد أو منظومة من المعايير الخاصة بالرشادة والعدالة أو تصور خاص عن الأخلاق والدين والسياسة والاقتصاد، وإذا ما جردنا اللغة من سياقها الثقافي تصبح جثة هامدة وإطار أجوف²، فاللغة عبارة عن كائن حي داخله روح زاخرة بإمكانات التي تفعل العملية الحوارية وتسير بالتواصل نحو أفقه العليا نحو تحقيق التفاهم وهذا الطموح الأخير أمر يقوم على ربط الفعل التواصلية باللغة كأداة لتنظيم الأفعال الاجتماعية.

* - أستاذ و باحث معاصر في مجال فلسفة التربية ، يشغل حاليا منصب أستاذ في جامعة السوربون

¹ - نقلا عن: لطفي الحجلوي، فلسفة التربية، الإشكالية الراهنة، دار التنوير الجزائر، ط1، 2009، ص 138.

² - مني أبو الفضل وآخرون، الحوار مع الغرب: آلياته - أهدافه - دوافعه، ص 90.

وبالتالي فإن اللغة عنده ليست مجرد وسيلة لنقل الأفكار والمعلومات وإنما هي رابط من الروابط الاجتماعية الأساسية التي تؤدي إلى التداوت المشترك والتفاهم المتبادل الذي يتخلى فيه الفرد عن أنايته الطبيعية وينخرط في الإطار الاجتماعي القائم على التواصل والتداوت والمناقشة الحرة، واللغة هي الإطار الذي يحدث فيه هذا التواصل.¹ إذ أن ما يفسر أداء اللغة لوظيفتها واقتصادها الداخلي وتواترها هو شروط وظروف التواصل لا التعبير عن الفكر.²

ولقد شكلت اللغة محورا أساسيا من محاور الفكر الفلسفي المعاصر وبتحديد بعد الحرب العالمية الثانية مثل ذلك المذهب الوجودي، الظواهري، البنيوية والتحليلية وغيرها، فرغم اختلاف كل هذه المذاهب جميعا من حيث الأفكار والمبادئ والأطروحات التي تنادي إليها إنما تتفق جميعها حول الدور البالغ من الأهمية للغة في الفترة المعاصرة، وهو الأمر عينه ما جعل الفيلسوفين الألمانين آبل وهابرماس أنفسهم ينخرطون في هذا التوجه اللغوي وقد عبر من ذلك هابرماس بقوله: «إن من أهم الأسباب الفكرية التي جعلتنا كارل آتو آبل وأنا ذاتي، ننخرط في هذا التوجه بغية إرساء تداولية ترسدتالية أو شكلية، هو الحالة التي توجد عليها فلسفة ما بعد الحرب العالمية في ألمانيا»³.

ليؤكد في السياق ذاته أن هذا الاهتمام الذي أضحي جليا باللغة في الفترة المعاصرة جعلنا نتقل من نموذج الذهنوية (العقلية) إلى براد يغم جديد وهو نموذج اللغة باعتبار أن الحوار في نهاية المطاف ليس إلا حوار حول مفاهيم ومصطلحات ما داخل خطاب معرفي كما قد يكون بين خطابات مختلفة ومتعددة ذات طابع فكري.⁴

¹ - كمال بومني، النظرية النقدية لمدرسة فرانك فورت: من ماكس هوركهيمر إلى إكسليموننت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط01، 2010م، ص 120.

² - محمد سيلا وعبد السلام بن عبد العالي، دفاثر فلسفية، دار توفال للنشر، المغرب، ط4، 2005، ص 07.

³ - يورغنهامبرماس، إتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، ترجمة عمر مهيل، منشورات الاختلاف، ط1، 2010، ص 55.

⁴ - مني أبو الفضل وآخرون، الحوار مع الغرب: آلياته، أهدافه ودوافعه، ص 98.

وهنا نجد أن اللغة بالفعل قد تحررت من ذلك السياق الضيق الذي عرفته من جراء تلك النظرة القاصرة لها والتي جعلتها تدور في حدودها الضيقة، فلا تزيد عن كونها أداة التعبير التمثيلي أو التصويري، فالكلمات لا تزيد في وظيفتها عن وصف الأشياء الموجودة في الواقع أو التعبير عن المشاعر، فسواء كانت هذه الكلمات مكتوبة أو منطوقة فهي تعبير فقط عن الإدراكات الحسية، هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن اللغة هنا هي مجموعة من الرموز والدلالات تستخدم كأدوات لوصف الأشياء والتعبير عن الحالات النفسية لا غير.

ولذلك نجد هنا محاولة هابرماس تتجلى في سعيه لنقل اللغة من إطارها الضيق ونظرة سطحية عابرة إلى وضعها في إطار أكثر عمقا واتساعا ألا وهو البعد التداولي الاستخدامي للغة مبرزا ذلك بقوله "الوظيفة الشعرية ليست الوظيفة الوحيدة لفن اللغة، إنما وحسب الوظيفة السائدة المحددة... وهكذا فإن الألسنية التي تعالج الوظيفة الشعرية لا يمكنها تحديد نفسها بمجال الشعر، فالقول الشعري لا يتميز إذن بالأولوية القوة البانية لوظيفة ما تؤدي على الدوام بالاقتران مع وظائف أخرى للغة".¹

وقد كان لهذا التحول من قبل الفلاسفة إلى اللغة من إطارها التعبيري الوضعي إلى إطارها أو بعدها الاستخدامي مدين لجهود الكثير من الفلاسفة و اللغويين الذي كان لهم الفضل في إحداث هذه النقلة النوعية في مجال اللغة، وأول هذه الثورات التي عرفتها اللغة كانت على يد المفكر اللغوي دوسسير* مؤسس علم اللسانيات أو البنيوية في اللسانيات الذي أزال ذلك الارتباط الضروري الذي كان يربط بين الدال والمدلول مبينا أن ما العلاقة بينهما إلا علاقة اعتبارية على الأخرى من الناحية النحوية والتركيبية وأن الارتباط الضروري يتجلى في العقل وحده وهذا يعني الفكر غير سابق عن اللغة.

¹ - يورغن هابرماس، القول الفلسفي للحدث، تر: فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، 1995م، ص 309.

* - دوسسير: De saisser Ferdinand (1857 - 1913) عالم لسانيات سويسري اهتم باللغة ومصدرها وميز بين اللغة والكلام، يعود له الفضل في إرساء اللسانيات التي يراها علما من بين العلوم الأخرى.

فلولا امتلاكنا للغة لما امتلكننا الأفكار أصلاً، بإضافة إلى دوسسير نجد كذلك نظرية عالم المنطق واللغوي فنحشتين* التي لا تقل أهمية وذلك بفضل انتمائه إلى نظرية اللغة الطبيعية، فهذا الفيلسوف ينظر إلى اللغة في بعدها الاستخدامي أو التركيبي داخل الجملة مؤكداً أن اللغة أكثر بكثير من أن تحصر في مجموعة من الرموز حيث يقول في هذا السياق "أن معنى الكلمة هو طريقة استخدامها في اللغة"¹ مقدماً في هذا السياق نظريته الجديدة المعروفة بنظرية ألعاب اللغة إذ ترى هذه الأخيرة أن للملفوظ أو الكلمة أكثر من معنى واحد وبالتالي يتحدد معنى الكلمة من خلال استخدامها واستعمالها وتركيبها داخل الجملة، مبيناً في الوقت نفسه استحالة الفصل بين الدلالة والتركيب والتداول فبالنسبة لفتحشتين نكون أمام اللغة كلاجبي شطرنج التي تشكلها مجموعة من القواعد التي لا بد من احترامها من قبل اللاعبين، وقد امتد تأثير فتحشتين إلى بعض الفلاسفة اللغويين المعاصرين أمثال أوستين** وسيرل*** وغيرهم مؤكدين بدورهم بضرورة التخلص من تلك النظرة القاصرة للغة التي ترى أن وظيفتها لا تزيد عن كونها أداة لوصف العالم الخارجي، فعندما نتلفظ بمنطوق معين فنحن نشير إلى شيء موجود في الواقع، فالمنطوقات تبقى في هذا الإطار حبيسة الوقائع الخارجية، فما نحكم عليه بالصدق والكذب هو فقط ما يتوافق مع الواقع، وما دون ذلك فهي قضية خالية من المعنى.

وبعدما عرض أوستين في كتابه "كيف نصنع الأشياء بالكلمات" فائماً بذلك الآفاق أمام منعرج

اللسانيات التداولية* مبرزاً في الوقت نفسه مواقفه من التصورات المنطقية للغة التي سبق الإشارة إليها مبرزاً

* - فتحشتين(WittenstenLudwig)،(1889 - 1951): أحد ممثلي الفلسفة التحليلية، عرف بنظريته في الألعاب المنطقية والتي عرضها في كتابه الضخم الرسالة المنطقية.

¹ - لودفيج فتحشتين، بحوث فلسفية، ترجمة عزمي اسلام، مراجعة وتقديم عبد الغفار مكاي، جامعة الكويت، ص 72.

** - أوستين جون (AustinJohn, 1911-1960) من أكبر فلاسفة الإنجليز، وأهم رموز مدرسة أكسفورد، يرجع له الفضل في ابتكار اللغة الطبيعية واستخداماتها اليومية.

*** - سيرل جون ريد (SearleJ.Read)، ولد عام 1932)، من بين أهم رموز فلسفة اللغة الأمريكيين المعاصرين، طور نظرية أفعال الكلام التي أبدعها زميله أوستين.

* - التداولية:(pragmatique) ينبغي في هذا المقام أن ندرك التمييز الموجود بين مصطلح التداولية الذي نقصد به الاتجاه اللغوي الذي يعنى بقضايا الاستعمال اللغوي وما يقابله في المصطلح الفرنسي (pragmatique) أو البرغماتية وما تحيل إليه من مصلحات النفعية، الذرائعية، فهذه الأخيرة هي عبارة عن مذهب فلسفي ظهر في (الو، م، أ) والذي ينظر إلى صدق القضايا والأفكار تبعاً لما تقدمه من حقائق عملية ونافع محسوسة

فهمها الضيق للدلالة الفلسفية " وهذا البحث التداولي سيرجمه هابرماس في قاعدة التفاهم التي تقتضي ضرورة أن كل فرد باعتباره عضواً في الجماعة التي ينتسب إليها وذلك باحترام السياق الاجتماعي ووضعية النقاش والتخاطب الضرورية للملائمة لمقاصد المتلقي فرصاً على إيجاد الملائمة لمعنى كل واحد"¹.

وتبين لنا من خلال هذا أن هذه النظرية هي الأخرى كانت إحدى الروافد التي اعتمد عليها هابرماس في تأسيسه لنظرية الفعل التواصلي إلى جانب أبحاث فيجنشتين، وقد أطلق على هذه النظرية التداولية وهي نظرية تبحث في تحليل أفعال الكلام وقد قادها أكبر علماء اللغة، وبفضل هذه النظرية انتقلت اللغة من الإطار المجرد الذي يجعل من اللغة جملة من الرموز والإشارات إلى المجال التداولي الاستخدامي حيث تكون اللغة أداة للتفاعل والتواصل الاجتماعي من خلال الحوار والنقاش.

وقد ذهب أوستين إلى افتراض أفعال كلامية لها قدرة تواصلية أوسع تشير إلى ثلاث أنواع من أفعال الكلام وتمثل في: الأفعال الغرضية والأفعال التعبيرية والأفعال التأثيرية وقد ميز أوستين "بين فعل القول المجرد وفعل القول الواعد الذي يقوم على الفاعلية المرتبطة بالقول الملفوظ مثل الأفعال: هدد، أعلن، شكر وغيرها من الأفعال، وإلى هذه يضاف فعل القول المتوعد، وحتى تكون أفعال الكلام هذه واعدة لا بد من سلسلة من الشروط حيث علينا أن ندرك العبارة في إطار مصطلحات معينة."²

وهي نفس الأطروحة التي أكدها صديقه سيرل حيث اعتبر أن اللغة ما هي إلا تجسيده لأفعال الكلام فأقولنا هي أفعالنا على أنواعها، حيث يقول سيرل "إن التواصل اللغوي يتضمن أفعالاً لغوية لوحدات التواصل اللغوي من إنتاج الرمز أو الكلمة أو الجملة في تأدية أفعال الكلام"³.

على أرض الواقع وتعود نشأة التداولية إلى سنة 1955، عندما ألحق جون أوستين محاضراته في جامعة هارفارد ضمن برنامج "وليام وليام جيمس" واللغة من منظور التداولية تدرس من حيث الاستعمال التواصلي للتوسع، أنظر: التداولية اليوم، لـ آن ربول. جاك موشلار، ص 28.

¹ - علي حرب وآخرون، الفلسفة الغربية المعاصرة، ج2، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013، ص 1497.

² - بيتر كونزمان وآخرون، أطلس الفلسفة، تر: جورج كثورة، المكتبة الشرقية، لبنان، ط02، 2007م، ص 223.

³ - نقلاً عن: أبو النور حمدي أبو النور حسن، يورغنهابرماس: الأخلاق والتواصل، دار التنوير، لبنان، ط01، 2012م، ص 158.

وأمام هذه التغيرات التي عرفتها فلسفة اللغة المعاصرة والتي ساهمت بشكل كبير في تأطير الصورة العامة للغة لدى كل من هابرماس وحتى صديقه آبل وإحداث ما يعرف في فلسفة اللغة ما يعرف بالمنعرج اللغوي والذي أعتبر كل من الفيلسوفين السابقين أهم ورثين له، وبعتراف من آبل نفسه بقوله: "وبهذا المعنى نكون نحن الاثنين ورثة التعبير التداولي الألسني التأويلي في الفلسفة المعاصرة"¹.

ومن هنا نجد أن اللغة تحتل مكانة أساسية في نظرية الفعل التواصلي التي يسعى هابرماس لإقامتها من خلال إتيقا المناقشة، والسبب في ذلك أن التواصل في حد ذاته لا يقوم إلا إذا كان على شكل نقاش أو حوار يتبادل أطرافه الحديث حول موضوع ما، وما النقاش أو الحوار الذي يجري بينهم إلا خطابات لغوية، فاللغة هي الأداة الوحيدة لتحقيق التفاهم والاتفاق، فطبعاً قد لا تكون الوسيلة الوحيدة للتواصل بين البشر لكنها دون أدنى شك فهي من أرقى أدوات التواصل البشري.

واللغة في هذا السياق بالنسبة لهابرماس تتجه نحو البعد الاجتماعي وليس الفردي أين تفتح الذوات عن بعضها البعض بفضل اللغة التي تسمح بتحقيق هذا الاتصال والتذوات، واللغة التي يعيها هابرماس هنا هي اللغة العادية ذات الاستخدام اليومي لأفراد المجتمع فهي ليست ترسدتالية، لأن سبيلها هو بناء نسيج من الذوات المتواصلة فيما بينها في إطار عالم معيش، إطار اجتماعي بكل تجلياته وتطوراته وإذا كان التواصل في مبادئه الكبرى، عبارة عن مجموعة من العلامات اللفظية وغير اللفظية فإن بإمكاننا أن نخلص إلى أن اللغة جزء لا يتجزأ من العملية التواصلية، وإذا كانت دائرة التواصل في شمولها تضم الإنسان والكائنات الحية الأخرى فإن اللغة البشرية في المقابل تقوم على نظم تواصلية تمكن الأفراد من القدرة على إنتاج وفهم الألفاظ المعقدة انطلاقاً من تفاعل الطاقات الذهنية والعقلية مع الحاجات التعبيرية المتجددة².

¹- كارل أوتو آبل، التفكير مع هابرماس ضد هابرماس، تر: عمل مهيل، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط01، 2005م، ص 23.

²- محمد عابد الجابري وآخرون، التواصل: نظريات وتطبيقات، الكتاب الثالث، سلسلة فكر ونقد، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، لبنان، ط1، 2010، ص 69.

وقد شكلت اللغة أكبر اهتمامات المدرسة التأويلية الهيرمونطيقية على وجه الخصوص وذلك عبر مراحلها المختلفة وقد تظهرت بشكل أوضح في عالمية هيرمونطيقاغامير*، فاللغة بالنسبة له ليست مجرد نظام لغوي لبعض القواعد ولكنها في الأساس حوار وعلاقة بالآخر علاقة الغيرية، ويبقى الحوار بالنسبة له علاقة ضرورية لا غنى عنها للتخلي على الخلافات وإرساء مبدأ الفهم كإشراك ومشاركة¹.

ويتبين من خلال هذا أن اللغة بالنسبة إلى غادامير أكثر من كونها أداة ورموز منطقية بل ينظر إليها في بعدها التداولي الاستخدامي، فهي أداة لتحقيق الفهم والوصول إلى الحقيقة "فالحوار بالنسبة إليه بحث عن حقيقة ما، من خلال منهج معين يقوم على أساس أن اللغة هي أداة تواصل وحوار، وكل حقيقة تتقيد بالسياق والاستعمال أي التطبيق والتوظيف وإعادة الإنتاج².

التأويل عند هابرماس لا يسير في منحى التأويل لدى غادامير فإذا كان كل فهم هو تأويل بالنسبة لهذا الأخير ووظيفة التأويل ترتبط بتفسير العناصر التي تتيح الفهم هو الذي يجعل الاهتمام بالتأويل «وما يمكن أن نسميه بالتعددية التأويلية يأتي في سياق تحديد صورة معينة للعالم ولفهم الذات بالمرّة، وكذا الإدراك القيم والمصالح المرتبطة بالأشخاص ارتباطاً حميمياً، والتي عمل التاريخ الفردي على الزج بها داخل تقاليد الحياة الخاصة وأشكالها بغرض تحديدها»³، إن هابرماس يؤمن بأن العالم بما فيه ممدد ومفتوح ومنفتح «ومؤول تأويلات متعددة بحسب الرؤى المناسبة للأفراد والجماعات وهذا كتقدير أولي على الأقل»⁴.

ما يعني هنا أن التأويل بالنسبة لهابرماس يتجاوز الفنية إلى النقدية بغية جعل التجارب أكثر وعياً وهذه التجارب نجسدها من خلال خطاباتنا اللغوية أثناء ممارستها للفاعلية التواصلية، ودليل هذه المقدرة هي البلاغة

* - غادامير جورج (G.Gadamer)، (1900-2002): فيلسوف ألماني تأثر بفلسفة أستاذه هايدغر، وقد وضع منهجاً في البحث الفلسفي في كتابه الضخم الحقيقة والمنهج ودافع من خلاله على أن فكرة المنهج تختلف حسب الموضوع، فمنهج العلوم الطبيعية ينبغي أن لا يكون نفسه منهج العلوم الإنسانية.

¹ - أبو النور حمدي أبو النور حسن، يورغنهارماس، الأخلاق والتواصل، ص 158

² - مكي أبو الفضل وآخرون، الحوار مع الغرب: آلياته، أهدافه، دوافعه، ص 103.

³ - يورغنهارماس، إتيقا المناقشة، ومسألة الحقيقة، ص 21.

⁴ - نفسه، الصفحة نفسها.

كإطار خارجي متعلق بالمصطلحات والمنطوقات، والتأويل كإطار داخلي يتعلق بالفهم وتحصيل الوعي، فعندما يقوم المشاركون في العملية الحوارية بالتأمل في مواقفهم، فهذا يعني حسب هايرماس أن بنية اللغة هي أساسا تأويلية، إنما تدعوا المشاركين إلى الاهتمام في التعبير على كافة المستويات وبذلك ترجع درجة الفهم الذاتي لدى كل شخص، إذ أن هذا الفهم سيمتد تفاعله مع الآخرين وهذه هي غاية اللغة بالذات¹، أي يستجيب تلقائيا للوضعيات المتغيرة في الحياة، ومواكبة الوضعيات الجديدة وهذا كله في إطار الاعتماد على اللغة العادية فهذه الأخيرة عند هايرماس قادرة على تأويل نفسها بنفسها، وهكذا يمكن في نظر هايرماس أن نتحدث عن الأفعال والممارسات ووصفها ويمكننا تسمية التعبيرات المختلفة بل وجعل اللغة بمثابة إطار لتعبيرات التجربة الحسية، مع العلم أن كل لغة عادية تساعد على الإيحاءات التأملية لأشياء غير معبر عنها².

وبناء على ما سبق يتضح لنا أن هايرماس قد أولى اللغة اهتماما كبيرا باعتبارها مكون أساسي في العملية التواصلية، ولذلك يبدو أنه لم يبالغ من اعتبار أن الفلسفة ستعيش تحولا براديجميا أي انتقلنا من النموذج العقلي القائم على مركزية الذات والمؤسس لفلسفة الوعي، إلى نموذج جديد هو نموذج اللغة أين تفتح فيه الذات على الآخر، داخل مجتمع يحكمه التفاعل الذاتي القائم على الأسس والمبادئ والمعايير العقلية، فاللغة هي الوسيلة التي يحول بواسطتها البشر بيئتهم، تؤدي إلى ظهور ما يدعوه هايرماس المصلحة العملية وهذا بدوره يؤدي إلى ظهور العلوم التأويلية وينصب اهتمام المصلحة العملية على التفاعل البشري أي على طريقة تأويل أفعالنا اتجاه بعضنا البعض، وطريقة فهمنا لبعض، والسبيل التي تتفاعل بها في إطار التنظيمات الاجتماعية³ هذه التنظيمات التي لا يمكن لها أن توجد إلا في إطار اجتماعي واقعي معيش، فهناك هايرماس عندما يتحدث عن التواصل أو عن اللغة فإنه لا يتحدث عنها خارج إطار الواقع أو العالم المعيش هذا الأخير الذي

¹ -جون ليشته: خمسون مفكرا أساسيا معاصرا، تر: فاتن البستاني، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط01، 2008، ص 381.

² -محمد نور الدين آفاية، الحدائث والتواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، نموذج هايرماس، إفريقيا الشرق، المغرب، ط02، 1998م، ص 75.

³ -أيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونس إلى هايرماس، تر: محمد حسين غلوم، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دط، 1999م ص

سوف نتعرض له في البحث الثالث حتى نعرف أين يتموقع هذا المفهوم في إطار نظرية تواصلية ممتدة الأطراف، ولكن قبل ذلك يجدر بنا النظر إلى التداولية الشكلية التي أسسها في إطار أخلاقيات المناقشة.

المبحث الثاني: في إطار التداولية الشاملة (الصورية)

أعلن هابرماس أن الهدف من العقلانية التواصلية هو تحقيق التفاهم والاتفاق البنّاء بين أطراف الحوار والمناقشة، لأنه هو المطلب الوحيد الذي ينبغي تحقيقه من خلال الفعل التواصلية، ولأن هذا الأخير هو عبارة عن تفاعل بنّاء يربط بين ذاتين أو أكثر داخل إطار عالم معيش باستخدام اللغة السلمية، والحديث عن اللغة السلمية يعني دائماً الحديث عن اللغة العادية فكل شخص قادر على الفعل والكلام يمكنه الدخول في النشاط التواصلية شرط أن يعلن عن إدعاءات الصلاحية وأن يراعي شروط المعقولية¹.

وغياب هذا من شأنه أن يحول النشاط التواصلية عن مساره، فبدل من سعيه إلى تحقيق الاتفاق والتفاهم بين الذات يصبح سعيه موجهاً نحو تحقيق النجاح بين الذات المتفاعلة، ولأنه لا يكون نشاطاً عشوائياً بقدر ما يكون نشاطاً منظم تضبطه جملة من الضوابط الأخلاقية والتي سنتعرض إليها بعد قليل، إن جملة هذه الضوابط الأخلاقية والمنطقية استوجبت أن يضيف هابرماس مفهوماً آخر وهو مفهوم **المحاجة (argumentation)** إذن فالنشاط التواصلية مقترن بمدى قوة المحاجة التي يقدمها الفاعلون في النشاط التواصلية وفق شروط تحددها صلاحية التواصل أعطاهما اسم ادعاءات الصلاحية (**validité**)^{2*}.

¹ - محمد نور الدين أفاية، الحدائنة والتواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة: نموذج هابرماس، ص 196.

* - ادعاء الصحة: هو التزام نحو تبرير المرء لأفعاله وكلماته للآخرين، وبالتالي تصبح لها وظيفة عملية اجتماعية توجه الفاعلين في العملية الحوارية.

² - الدراجي زروخي، المذاهب الفلسفية الكبرى: من سؤال المعرفة إلى سؤال القيم، دار صبحي للطباعة والنشر، غرداية، ط01، 2015 ص 275.

أولا/ إدعاءات الصلاحية.

قدم هابرماس جملة من المعايير والشروط* التي من شأنها أن تضبط منطوقاتها وتجنبا سوء الفهم هذه المعايير التي كانت حصيلة إطلاعه على جملة أبحاث اللغويين المعاصرين التي سبقت الإشارة إليهم (سيرل وأوستين وغيرهم) وتمثل هذه المعايير فيما يلي: (المعقولية، الصدق، المصدقية، الدقة)، والحقيقة يرجع إلحاح هابرماس على هذه المعايير بسبب إلحاحه على قضية التفاهم داخل المجال العمومي وحرصه على بناء نسيج من علاقات تواصلية غير خاضعة لأي نوع من أنواع الضعف والسيطرة¹، التي يمكن أن تحول دون تحقيق الهدف الأسمى من التواصل ويحيل كل معيار من المعايير سالفه الذكر إلى ما يلي:

1- الصدق: ويتعلق هذا المعيار بصدق العبارة أو القضية التي يعرضها المتكلم من خلال تطابقها مع الواقع فلا يتحدث عن أمور افتراضية وهمية، فهذا المبدأ مرتبط بمضمون القول وحقيقته من خلال وصف حالة واقعية غير مستوحاة من الخيال، هنا يبرز تأثيره بالفيلسوف المنطقي فيتجنشتين الذي أكد أن العالم جملة من الوقائع الذرية لا الأشياء² فبالنسبة إلى فيتجنشتين كل كلمة أو لفظ له ما يقابله في الواقع، فيتجنشتين الأول.

2- المعقولية: وذلك من خلال إخضاع كل شيء لضوابط عقلانية كمحك أخير ووحيد يبرز بشكل جلي من خلال تركيب الجمل تركيبا صحيحا من الناحية النحوية أين يحترم فيها جميع قواعد اللغة المستعملة، ويعتبر هذا المبدأ أحد الشروط الدائمة للتواصل.

3- المصدقية: ويتعلق هذا المبدأ بالعلاقة البنذاتية التي تربط الأفراد فيما بينهم باعتباره أداة لتحقيق علاقة مستقيمة بين الأشخاص³ وهذا من خلال تطابق الفعل اللغوي مع مقتضيات مخطط معياري سابق معترف به

*- لقد حدد هابرماس شروط الصحة التي يجب أن يستوفيها الخطاب العقلاني وفق مبدأين: أولا مبدأ التعميم، فلا يصح وفق هذا المبدأ أن نجعل من صحة هذا الخطاب مقبولا إلا إذا تحقق مصالح مقبولة عند جميع الأشخاص المنخرطين في المحاور، أما المبدأ الثاني فهو مبدأ المناقشة، فالحكم لا يصح إلا إذا اتفق حول صحته جميع الأفراد المتحاورين، فلا يمكن لهم أن يتفقوا لولا وجود الحوار.

¹- محمد نور الدين أفاية، الحدائة والتواصل في الفلسفة الغربية المعاصر: نموذج هابرماس، ص 196.

²- أبو النور حمدي أبو النور حسن، يورغنهارماس الأخلاق والتواصل، ص 254.

من طرف أفراد المجتمع¹ بحيث لا يخرج سياق الحديث بين الأفراد عن الاصطلاح الموجود في المجتمع، فالاتفاق حول المصطلحات المستعملة في العملية الحوارية سبيل لتحقيق تواصل نزيه بعيد كل البعد عن الشبهات والمغالطات.

4- الدقة: بالفعل وبدون مبالغة يعتبر هذا المعيار من أهم معايير العملية التواصلية، فهو معيار مرتبط بذات كل فرد، بحيث يقبل كل فرد على التعبير عن نواياه من خلال آرائه وأفكاره بطريقة واضحة ومفهومة دون إفراط ولا تفريط بحيث لا يكون مغاليا في الشرح فيطنب في كلامه، وهذا من شأنه أن يجعله يدخل في بعض القضايا التيتحيله إلى منعرج آخر غير الذي قصده، وإما أن يكون مقلا في كلامه فلا يحقق المعنى من كلامه بل سينتاب كلامه النقص فيختل بذلك المعنى.

ولقد ألم الباحث المغربي نور الدين أفاية هذه المعايير بقوله: "يتعين على المتكلم أن يختار تعبيرا معقولا لكي يتمكن المستمع من تفهم الواحد للآخر، والمتكلم لابد أن تكون له نية تواصل قضوي حقيقي لكي يتمكن المستمع من مشاطرة معرفته على هذا المتكلم أيضا، و أن يعبر عن مقاصده بصدق حتى يتمكن من تصديقه أيضا والثقة به، ويتعين على المتكلم اختيار تلفظ دقيق بالقياس إلى المعايير والقيم الجاري بها العمل حتى يتمكن المستمع من قبول هذا التلفظ".²

وكلما اجتمعت هذه المعايير الأربعة في العملية الحوارية أو عند كل مناقشة يتحقق ما يصطلح عليه بالحالة المثالية للكلام ويقصد بها أن التواصل قد يصل إلى أرقى مستوياته حتى بات يعبر عن إنسانية الإنسان الفعلية متخطيا بذلك كل ما يمكن أن يعيقه مثل التعسف والعنف واللامساواة، وعدم تقديم فرص متكافئة في الكلام وعرض الآراء بقدر متساوي، ولذلك يمكن القول في هذا الصدد، وأن الحالة المثالية للكلام تتطابق كليا

1- أبو النور حمدي أبو النور حسن، يورغنهايرماس، الأخلاق والتواصل، ص 254.

2- محمد نور الدين أفاية، الحدائة والتواصل في الفلسفة الغربية المعاصر: نموذج هابرماس، ص 197.

مع المناقشة العقلانية حيث لا مكان للقوة أو السلطة أو النفوذ ولا كلمة إلا لكلمة البرهان والحجة الأقوى وهناتحول مطلب المشاركون في العملية الحوارية إلى البحث عن البرهان الصحيح.

فالحوار القائم على الحجة العقلية وعلى الحرية والاحترام المتبادل يقود بالضرورة إلى نتائج يمكن أن يتوافق عليها الجميع وفي هذا السياق يقول هابرماس: «إن المشاركين في مناقشة ما لا يمكنهم أن يخلعوا بإدراك توافق حول ما يمكن أن نسميه القاسم المشترك المتساوي بين الجميع إلا إذا قام كل واحد منهم بالخضوع ذاتيا إلى ذلك التمرين يمكننا من خلاله أن نبين وجهة نظر الآخريغبة تحقيق ما يسميه بياجيه* (Piaget) زحزحة تدريجية لانا عن المركز (Décentration)، وبالمره إزاحة للذات المتمركزة حول ذاتها- ومن ثم التخلي عن تلك النظرة المركزية فيتعامل الفهم مع العالم القائم»¹ وما يتضح لنا من خلال هذا القول يؤكد هابرماس على ضرورة الخضوع لتلك المعايير التي سبقت الإشارة إليها من قبل كل أطراف العملية الحوارية وتبرز تلك المعايير من خلال تلفظاتنا ومنطوقاتنا.

إذا أن هذه الإتيقا لدى هابرماس تهدف إلى معرفة الإطار الإجرائي الذي يجري فيه مناقشات عملية ذات الطابع المعياري، والإجراءات المتبعة عند الشروع في تبرير صلاحية معاييرها فإتيقا المناقشة (أو الإتيقا التواصلية) عنده لا تتمثل في الأوامر أو النواهي بل هي مجرد معايير تنظم العملية التواصلية في المجتمع وتتلور أشكال التفاهم الذي يتم بين الأفراد في إطار العقلنة اللغوية وسيادة المعقولة النقدية.²

والغرض من كل هذا هو الوصول إلى تحقيق تفاهم بينذاتي مشترك بين أطراف المناقشة، ولا يمكن لنا تحقيق هذه الغاية وتحصل التفاهم إلا من خلال التزام الفاعلين بمختلف ادعاءات الصلاحية، والتي من شأنها تحقيق الفرص المتكافئة في عرضهم للحجج المنعنة في إطار مشترك ومن هنا يتحول مطلبنا وغايتنا نحو تحصيل الحقيقة حيث يقول هابرماس «وما إن ينخرطوا في ممارسة حججيه من هذا القبيل حتى يصيروا ملزمين بأن

*- جان بياجيه: (Jean Piaget) 1950-1896: عالم نفس وتربية سويسري، وهو من أكبر الباحثين في علم نفس الطفل .

¹- يورغنهايرماس، إتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، ص 23.

²- كمال بومنيير، النظرية النقدية لمدرسة فرانك فورت، ص 121.

يكونوا في مستوى التوقعات بالتعاون المنتظر منهم، والمنشغلة بالبحث عن أنماط الأسباب والبواعث المقبولة من قبل الآخرين أيضا، كما يتحتم عليهم بالإضافة إلى ذلك أن لا يتأثروا إلا بهذه الأسباب عند إعلانهم عن مواقفهم المختلفة»¹، ذلك أن كل فعل كلامي مخلص يطرح أربع ادعاءات مختلفة لصحته (الحقيقة، الدقة، الصدق المصدقية) وهي ادعاءات ضرورية والالتزام بها لا مناص منه، حيث ليس بإمكاننا الدخول في غمار الحوار الحقيقي وتقديم البراهين وإقناع الأطراف المشاركة دون أن نجعلهم على إيمان أننا مخلصون فيما نقول وصادقون في أنفسنا ونياتنا ومقاصدنا².

فلا يتمثل مشروع إتيقا التواصل حسب هابرماس في الإقرار بحقيقة مطلقة، بل يتمثل في السعي وراء الوصول إلى قرار واختيار أو تقويم من لدن المتحاور مناصفة من دون ضغط أو إكراه إذ ليس من حق المتحاور أن يفرض موافقة على الآخرين ولا تقييم مختلف الآراء، إذ يجب الارتقاء في عرض المواقف والأفكار فالحوار هو الذي يحدد مدى صحتها ومصداقيتها وصلاحيتها ومدى تقبلها من قبل الذوات المتحورة داخل الفضاء العمومي³.

ثانيا: شروط التداولية الصورية.

تتجه غاية الفعل التواصلية نحو تحقيق البعد التداولي للغة باعتبار هذه الأخيرة بمثابة الوسيط في عملية التفاهم، وعملية يتم من خلالها الإعلان عن إدعاءات الصلاحية من طرف المشاركين على احتمالية القبول أو الرفض، فالافتراضات التداولية للمناقضة تظهر أنه من الممكن تماما تلبية شرطين أساسيين:

الشرط الأول: كل مشارك فرد حر فيما يقوم به ما دام يجوز على السلطة الاستمعية في صيغة المتعلم، والتي تسمح له باتخاذ موقف من المواقف.

¹ - يورغنهايرماس، إتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، ص 26.

² - جيمس جوردن فينيلسيون، يورغنهايرماس: مقدمة قصيرة جدا، ترجمة أحمد محمد الروبي، مؤسسة هندواي للتعليم والثقافة، مصر، ط1، 2005، ص 52.

³ - كمال بومنيير، النظرية النقدية لمدرسة فرانك فورت، ص 119.

الشرط الثاني: هذه سلطة الاستمعية تتم ممارستها بغرض البحث عن اتفاق عقلايين مدروس، ومن ثم العمل

على اختيار الحلول التي تكون مقبولة عقليا وعقليا فقط، من قبل كل الأشخاص المنضمين والمعتمدين هنا¹.

فتفهم الفاعلية التواصلية ضمن متبادل يهدف إلى التفاهم والقبول بين المشتركينوهم يتعاملون في هذه

الحالة عن طريق البرهان، والبرهان يفرض مسبقا الحياد والمسؤولية لدى المتخاطبين أو المتحاورين داخل المناقشة

ومعقولية الخطاب والنقاش الصحيح تراضي وهو يقوم على أساس المعقولية وليس بالتهديد والعنفالنقاش يقوم

على القوة الخالية من عنف الخطاب، وعلى هذه الأسس يؤثر المتحاورون الواحد في الآخر وفق الفاعلية

الاستراتيجية، وفي الفاعلية التواصلية يؤثر الفاعلون طبقا للتفاهم المتبادل وهنا مبدأ الاختلاف².

فهذا التوجه الأخير "يعكس سمو الرابطة الاجتماعية، ذلك أنه وبمجرد انخراطنا في ممارسة حجاجية

معينة نكون قد سلمنا أمرنا ثانية لتلك الروابط الاجتماعية التي تمثل على ماثرتها في ممارسة تأثيرها حتى

ولو تعلق الأمر بأفراد يتنافسون بغية إيجاد أفضل الحجج"³، لكن إذا كان هدف النشاط التواصلية هو تحقيق

التفاهم المتبادل والذي لن يتحقق بدوره إلا باحترام الشروط والمعايير التي حددها هايرماس (المصادقية، المعقولية

الصدق، الدقة) غير أن الأمر في واقعه قد يتخذ منحى آخر، إذ قد تتعرض هذه الإدعاءات إلى الشك أو عدم

قدرة المشاركون في الحوار على تبرير تلك الإدعاءات أو البرهنة عليها فإنه في هذه الحالة يعتريه النقص، فيتعطل

التواصل عندما يرفض أحد الأطراف المتحاورين الإذعان لأي ادعاء من ادعاءات الصحة، فعندما يطلب المستمع

من المتكلم أن يبرر ادعاءا بالصحة في إبداء الأسباب المقنعة له، فينتقل الفاعلون نتيجة هذا الخلاف من موقف

فعل إلى موقف خطاب الذي يتمثل في الإجماع المنقطع عن سياق الفعل⁴.

¹ - يورغنهايرماس، إتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، ص 26.

² - أبو النور حمدي أبو النور حسن، يورغنهايرماس الأخلاق والتواصل، ص 252.

³ - يورغنهايرماس، إتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، ص 27.

⁴ - جيمس جوردن فينيلسيون، يورغنهايرماس: مقدمة قصيرة جدا، ص 56.

وهنا يتم الانتقال من النشاط العقلاني التواصلي إلى النشاط الأداتي وهناك حل آخر يكمن في اعتراف الفاعلون بوجود عطب في الخطاب البرهاني عن طريق فشل أحد العناصر ادعاء الصلاحية الأمر الذي يضطر بهم إلى إعادة تبريرها وهذا ما أطلق عليه اسم "التداولية الكلية"¹ أو التداولية الشاملة، بحيث يتخذ منحى تجريبي واقعي من خلال السعي إلى تبرير الادعاء المعرض للشك فالتداولية الشاملة هي البرنامج الذي يسعى إلى إعادة القاعدة التي من خلالها يمكن تبرير هذا الإدعاء.

فغياب أحد عناصر إدعاءات الصلاحية يجعل هناك إمكانية الوقوع في الخطأ وهنا ما على الفاعل إلا أن يستعمل "التداولية الكلية وهذا يتم في ظروف كلامية مثالية تضبط المناقشة البرهانية"²، ويعتبر هابرماس في نفس السياق أن أي فعل يحمل في طياته إدعاء للصدق، وهذا الإدعاء من حيث هو المبدأ القابل للنقد فمثلاً يستطيع الشخص الموجه له هذا الفعل أن يستجيب "بنعم" أو "لا" بحسب ما يروق له³، وذلك من منطلق أن الإثبات أو نفي المنطوقات التي نعلنها حول قضية ما، إذ يعتبر هابرماس أنه بإثبات شيء ما، فإنني أعلن إدعاء يؤكد ما أثبتته حقيقي، وأن ما ادعيه يمكن أن يكون خطأ أو صواب، لأن الإثباتات لا تكون صادقة أو كاذبة، وإنما مبررة أو غير مبررة⁴، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن هابرماس يذهب إلى التأكيد على أهمية الفهم المثبت على أساس الأحكام والاحتكام إلى الحججة الإقناعية.

وتتجلى الشمولية هنا كون هابرماس لم يرد أن يجعل تلك المعايير مقتصرة على مجتمع ما أو ثقافة ما أو جنس معين، بقدر ما حاول أن يجعلها معايير كونية شاملة تشمل جميع الأفراد العاقلة القادرة على الفعل والكلام حتى يمكنها الدخول في العملية الحوارية، فالشمولية أو الكونية تتبع مباشرة بأن أي شخص قادر على الوصول إلى نفس الحكم لمدى قبول المعايير الخاصة بالأحداث.

¹- الدراجي زروحي، المذاهب الفلسفية الكبرى، ص 276.

²- نفسه، الصفحة نفسها.

³- أيان كريب، النظرية الاجتماعية، ص 310.

⁴- علي حرب وآخرون، الفلسفة الغربية المعاصرة، ص 1479.

المبحث الثالث: أخلاقيات النقاش وعقلنة العالم المعيش.

لقد عبر هابرماس عن الواقع الذي كان يتخبط فيه الإنسان الغربي وعن المفارقة التي كان يعيشها بقوله: "لقد أصبح التواصل الصوت الوحيد القادر على توحيد العالم فقد كل مرجعياته ولتواصل بالأدوات والتقنيات التي تضعف التواصل نفسه هذا هو جب التناقض الذي وضعنا فيه"¹ فالغريب في الأمر أنه بعد ذلك التطور العظيم الذي يشهد العالميوما بعد يوم شاملا جميع المجالات ومنها مجال الاتصال هذا الأخير الذي بات يشهد تطورا باهرا، ما جعل العصر المعاصر ينعت بحق بعصر التواصل عصرا عقدت فيه البشرية وأمالا كثيرا بفضل هذه المنجزات.

لكن في مقابل هذا وفي الوقت نفسه أصبحت المجتمعات تعاني من اللاتواصل قطعت فيه أوصل المجتمعات كليا، وهنا تكمن المشكلة فالعلم والتكنولوجيا اللذان اكتسبا في بداية النهضة صبغة مشروع تحرري قد تحول اليوم إلى أدوات سيطرة واستعباد² فكثرة وسائل الاتصال وتنوعها وتطورها إلا أنها ألغت التواصل نفسه وجعلت الإنسان يقع في غياب الوحدة والانطواء والانعزالية.

ولهذا أكد هابرماس أن لا مجال للخروج من هذه المشكلة، وعلاج هذه الانعزالية التي يعاني منها الإنسان إلا من خلال الأخلاق والتي تجلت في صورة جليلة في العقلانية التواصلية كبديل عن العقلانية الأداة وكسبيل للخروج من إطار انعزالية والتي تجسدت بصورتها الواضحة في فلسفة الوعي مبينا ذلك بقوله: «وما أمك بالفعل هو نموذج فلسفة الوعي، ولئن كان الأمر كذلك، فإنه لا بد من أن نختفي أعراض الإنهاك فعلا بالانتقال إلى نموذج التفاهم»³.

¹ - نقلا عن: أبو النور حمدي أبو النور حسن، يورغنهاربرماس الأخلاق والتواصل، ص 246.

² - محمد سيلا، مدارات الحداثة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، لبنان، ط01، 2009م، ص 205.

³ - يورغنهاربرماس، القول الفلسفي للحداثة، ص 454.

فهابرماس يدعو إلى ضرورة الانتقال إلى براديجم جديد يتجاوز براديجم الذي وبالفعل في الفترة المعاصرة لن يكون قادرا على استيعاب جميع تلك المتغيرات التي مست جميع الأصعدة، فالبراديجم الجديد يهتم بتحقيق التواصل والاتفاق بين المشاركين، و يعتمد على الحوار والمناقشة كألية لتحقيق هذا الاتفاق.

أولا: شروط العملية التواصلية.

فقد سعى هابرماس إلى ضبط الحوار أو النقاش الذي يتم داخل النشاط التواصلية من خلال مجموعة من الشروط حتى لا يكون نشاط عبثيا تحكمه العشوائية والمغالطات فيكون بذلك تواصل مشوه وزائف بعيد كل البعد عن التواصل الحقيقي، فالنشاط التواصلية ليس مجرد فعل تقوم به ذوات منعزلة منطوية على ذاتها ولكنه نشاط يقوم بين ذوات فاعلة لتغوص في مجال أوسع وأعمق من الحوار الذي تنطوي فيه كل ذات عن ذاتها، بل تتحول إلى حوار أكثر شمولية وفعالية، وهو حوار تتخاطب فيه ذوات كثيرة أو ذاتيتين فاعلتين على الأقل، ولقد لخصت عطيات أبو مسعود أهم الشروط التي تحكم الفاعلية التواصلية حتى لا ينحاز عن مساره ونذكرها على التوالي:

1- أن النشاط التواصلية لن يتم إلا من خلال علاقة التفاعل بين فردين أو أكثر وذلك في إطار العالم المعيشوكل شخص له القدرة على الفعل والكلام يمكنه الدخول في هذا النقاش شرط أن يعلن اعترافه الصريح بمزاعم الصدق المتفق حولها.

2- أن تكون اللغة هي الوسيلة التي يعتمدها المتحاورون في العملية التواصلية فاللغة هي الوسيط الأساسي في النشاط التواصلية، وعن طريقها يتم الوصول إلى نوع من التفاهم من خلال توظيف الجمل والعبارات والتعبيرات التي يتلفظ بها أعضاء الجماعة المشاركة في التواصل سواء كانوا متحدثين أو مستمعين.

3- أن تهدف العملية التواصلية إلى تحقيق الاتفاق والإجماع من الذوات المشاركة في التفاعل على أن هذا الاتفاق يفترض وجود على الأقل تقارب بين وجهات النظر وبإضافة إلى ذلك يتم الاعتراف المتبادل من قبل الفاعلين على مزاعم الصدق.

4- في حال ما وقع وأن تعرضت إحدى تلك المزايم الصدق للشك، مع عدم قدرة المشاركين في تبريرها والدفاع عنها بالحجج العقلية فإنه هنا قد يختل التواصل، وهنا ما على المشاركين في التواصل إلا إعادة فحص تلك المزايم من جديد ومراجعتها مراجعة نقدية لتصحيح خطاها.

5- أن يدخل المتحاور في النقاش وهو على دراية وعلم بأن هذا النشاط تحكمه جملة من القواعد الأخلاقية ومن ضمنها البحث عن الحجة والبرهان الأقوى، حتى تستطيع كل الأطراف الوصول إلى تحقيق الإجماع الذي لن يتحقق إلا من خلال الحجج والبراهين العقلية المتعرف بها من قبل كل الأطراف.

6- أن يتحرر الحوار من كل أشكال القصر والسلطة سواء داخلية كانت أم خارجية فهو حوار حر بين ذوات حرة ومتكافئة الفرص، حتى يتحقق بذلك الموقف المثالي للكلام.

7- حرية إبداء الرأي في إطار من المساواة وتكافؤ الفرص بين المشاركين، فييدي المشارك رأيه سواء تمثل في القبول أو الرفض حول الموضوع المطروح للنقاش، وهذا من شأنه أن يحقق الديمقراطية في التعبير عن الرأي.¹

وبناء من هذه الأخلاقيات التي عدها هابرماس ندرك أن هذا الفيلسوف قد أولى بالفعل أهمية بالغة للأخلاق في مجال التفاعل التواصلية أو ما أطلق عليها إتيقا المناقشة فهذه الأخيرة التي كرس هابرماس نفسه للدفاع عنها والتأكيد عليها باعتبارها مكون أساسي للعقلنة التواصلية، إذا لا يمكننا الحديث عن التواصل بعيدا عن هذا المطلب الأساسي، وذلك من أجل الوصول إلى بناء علاقات بنذاتية أساسها التفاعل والتكامل الإيجابي بين الذوات، وقد أكدت جاكين روس بدورها أن هابرماس يؤكد أنه ينبغي على من يريد النظر إلى أمر من الأمور من الزاوية الأخلاقية ألا يدع نفسه تفلت من سياق ما بين الأشخاص المشاركون في الاتصال والذين ينخرطون في علاقات شخصية بينهم.

¹ - عطيات أبو سعود، الحصاد الفلسفي للقرن العشرين، شركة الجلال للطباعة، الإسكندرية، ط1، 2002م، ص ص 103-105.

ونحن حين نتجاهل سياق التفاعل الذي يتم من خلال اللغة، وكذلك زاوية المشارك بوجه عام لا نحصل على نظرة حيادية بل نصل إليها إلى رفع الحواجز بسبب النظرات الفردية للمشاركين¹، فعندما تتفاعل الآراء فيما بينها يمكن أن يتمخض من ذلك الوصول إلى الآراء الأكثر صوابا على الأقل، وكلما ابتعدت أطراف الحوار عن التعصب والدوغماتية كلما زاد اقتراحهم من الحقيقة فيتحول مطلب المتحاورون من رغبة لفرض أنفسهم على الآخرين باعتماد على السلطة والقهر إلى مطلب جد سلمي، وهو البحث عن الحقيقة وهذه الأخيرة لا تتحقق إلا في إطار الحجة الأقوى والبرهان الأوثق، فتصبح السلطة التي لا سلطة عليها أثناء الحوار هي سلطة البرهان لا غير وهكذا لن يخرج الحوار عن إطاره العقلاني، وقد اعتمد هابرماس في محاولة تأسيسه لإتيقا المناقشة على ثلاث مصادر مختلفة للفلسفة العملية ألا وهي الفلسفة الأرسطية والنفعية وإلى جانبهما الفلسفة الكانطية بغية تقديمها في إطار أكثر واقعية وفاعلية، وذلك من خلال تخليصه من كل الشوائب الميتافيزيقية المتعلقة أساسا بفلسفة الوعي إلى فلسفة تؤمن بفاعلية الذات مع الآخر.

ثانيا: العالم المعيش في إطار التداولية الصورية.

يتم التواصل من خلال اللغة العادية كمادة أولية التي من خلالها تمارس الفعل التواصلية وتعني هنا حسب هابرماس اللغة العادية، فالعالم بالنسبة له يمثل الأرضية التي يبنى عليها الفعل التواصلية، فالعالم المعيش في إطار نظرية هابرماس لم يبقى في صورة ناقصة من حيث مستوى التحليل مقارنة مع المفهوم الترسدنتالي (trausendantale) للعالم المعيش المتطور بفضل الفينومينولوجيا (la phénomologie) بحكم أنه درس من وجهة نظرية التواصل ومن بعض جوانبه من طرف فلسفة الوعي².

لقد انتقل مفهوم العالم المعيش على يد هابرماس من المجال الترسدنتالي إلى المجال الواقعي الاجتماعي فالعالم المعيش هو الفضاء التي تجري فيه كل العمليات التواصلية وهو الذي يزود المشاركون في

¹ - جاكين روس، الفكر الأخلاقي المعاصر، ص ص 73-74.

² - حيدرة فتيحة، نظرية الفعل التواصلية عند يورغن هابرماس، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، الفلسفة، عمر مهيل، المدرسة العليا للأستاذة في الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الجزائر، 2007_2008م، ص 58.

التواصل بقوانين وقواعد اللغة المستخدمة في كل صورة من صور التواصل تجنبنا لسوء الفهم، ومن هنا اعتبر هابرماس العالم المعيش بأنه هو المرجعية التي نحتكم إليها في حالة الخطأ أو الشك باعتبار أن كل تواصل مبني على أساس عقلي برهاني هو التفكير فيما هو مجتمعي.

ولأن آليات التفاهم والحوار تتجه صوب دراسة الممارسة اليومية في نطاق العالم المعيش ولذلك أصر على ضرورة الارتباط بين العالم المعيش والعقل التواصلية «إذ يعتقد هابرماس بشكل جلي أنه بإمكانه القبول دونما حاجة إلى إقامة أساس آخر عدا التواصل في العالم المعيش (سبب موارد التفاهم في العالم المعيش التي تلجأ إليها) حتى عندما تتجه إلى وضعها موضع تساؤل خلال مسار الأنوار»¹، فنظرية الفعل التواصلية تستمد شرعيتها من العالم المعيش بكل مستوياته وبنائه السياسية والاقتصادية والثقافية باعتبارها المخرج الوحيد والأكثر انسجاماً لإنقاذ العقل الغربي من تركات العقل الأداة هذا ما يؤدي بنا إلى الولوج في عالم آخر وهو عالم الديمقراطية داخل المجتمع أو ما يطلق عليه بالفضاء العمومي.

ولأن الحديث عن التواصل وأخلاقياته لا يمكن الحديث عنها في إطار نظري بعيد عن الواقع بل هي نظرية مصدرها وغايتها الواقع بكل تغيراته وتجلياته، ولذلك نجد هابرماس نفسه قد أولى لهذا العنصر أهمية بالغة في إطار عام من نظريته الكبرى نظرية الفعل التواصلية مؤكداً ذلك بقوله: «لقد عملت جاهداً فيما يخصني على النظر إلى الأفراد بما هم أشخاص لا يستطيعون بلوغ مرحلة الفردنة إلا داخل مسار التشارك الاجتماعي»².

يتضح لنا في هذا المقام أن هابرماس قد أولى لمفهوم العالم المعيش أبعاداً مهمة وأكثر عمقاً، مؤكداً أن كل من اللغة والعالم المعيش من المحاور الأساسية في الفعل التواصلية حيث يؤكد هابرماس أن العلاقة بين اللغة

¹ - كارلأوتو آبل، التفكير مع هابرماس ضد هابرماس، ص 35-36.

² - يورغن هابرماس، إتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، ص 23.

والعالم المعيش هي علاقة اتصالية تأثيرية، وذلك أنه لا يمكن لنا فهم اللغة خارج إطار العالم المعيش، والعكس صحيح فاللغة بالنسبة للعالم المعيش هي بمثابة المفتاح له، فنحن نفهم عالمنا من خلال لغتنا.

ولأنه لا يمكن لأي منا أن ينفصل عن مجتمعه، فالإنسان بطبعه مدني واجتماعي فهو يؤثر فيه ويتأثر به وهذه الفاعلية التي تعيشها الذات بكل كيانها داخل المجتمع يسميها هابرماس بالعالم المعيش ومنه فهذا الأخير هو حياتنا كما نعيشها بكل تفاعلاتها وإيديولوجياتها، وقد أشارت عطيات أبو مسعود أن مفهوم العالم المعيش ليس أسبقية هابرماسية بحق بل سبقه لهذا المفهوم الفيلسوف الظواهري ايدموند هوسرل^{*}، حيث ربطه بما يتعلق بالقصدية التي حلل من خلالها العالم المعيش تحليلا ظاهريا¹، غير أن هابرماس عاب عليه عدم استخدام هذا المصطلح استخداما ذا هدف منهجي ويتضح ذلك من قوله: «إذا طرحنا جانبا المشاكل الفلسفية للوعي الذي تتعامل هوسرل مع مشكلة العالم المعيش فيمكن أن نفكر في ها العالم كما يتمثل في مجموعة من النماذج التفسيرية التي نقلت عن طريق الثقافة الموروثة ونظمت من خلال اللغة، ولا نحتاج أن نفسر هذا كله في إطار فلسفة الظاهرات ولا في إطار سيكولوجيا الإدراك»²، ومعنى هذا أن استعارة هذا المفهوم من قبل هابرماس كان بهدف منهجة الفضاء العمومي، فهابرماس يرى أنه من غير الممكن الحديث عن التواصل إلا في إطار العالم المعيش، ويقدر ما قد يكون هذا العالم السبيل بين الأفراد لتحقيق التفاهم والاتفاق، فإنه قد يتعرض للاغتراب والتشيع أو كما سماها الاستعمار الداخلي للعالم المعيش الذي كان سببه الوحيد هو غزو الأنظمة الرأسمالية.

والمجتمع الديمقراطي حسب هابرماس هو ذلك المجتمع الذي تكون فيه حرية التعبير عن الرأي وإتاحة الفرصة للجميع للدخول في نطاق الحوار العقلاني بتفهم جميع الأطراف ولقد أصر هابرماس على ضرورة تحقيق هذا المطلب لأنه السبيل الوحيد في نظره لعقلنة العالم المعيش وتحريره من الظلمات المادية التي بات مستغرقا

* - ايدموند هوسرل: (Edmmond.Hussrel)(1859 - 1938): فيلسوف ألماني يعتبر من أهم مؤسسي الفلسفة الظاهرية أو فلسفة الحياة.

¹ - عطيات أبو مسعود، الحصاد الفلسفي للقرن العشرين، ص 113.

² - نقلا عن عطيات أبو مسعود، نفسه، الصفحة نفسها.

داخلها فالتفاهم داخل سياق تواصلية عقلاية يضبط العلاقة بين المعرفة والسلطة، وبين المعرفة والرغبة شرط حاسم لخلق إجماع حقيقي يستطيع الفرد من خلال المناقشة الخروج عن ذلك الاستعمار الداخلي، فلا توجد حقيقة إلا بواسطة إجماع يكتسب اعتمادا على تواصل حقيقي بدون ضغط ومؤسس، لتدخل بين الذات والمواطن.¹

ثالثا: بنيات العالم المعيش:

قد بين هابرماس أن العالم المعيش يتركب من ثلاث بنيات أساسية وهي على التوالي:

1- **الشخصية:** وتمثل في شخصية الفرد وكل ما تحمله من قيم وأفكار ومعتقدات تجعل الفرد قادرا على الدخول في العملية التواصلية بهدف تحقيق الاتفاق.

2- **الثقافة:** وتشتمل على جملة تلك المعارف الموجودة في المجتمع يستمد منها المشاركون تأويلاتهم وأحكامهم وهي تساهم في تحقيق الاتفاق بين المشاركين.

3- **المجتمع:** وهو جملة التنظيمات والقواعد التي تنظم أسماء المشاركين في الفعل التواصلية إلى جماعة اجتماعية معينة تضمن تفاعلهم مع بعضهم البعض.

وتمثل هذه العناصر البنائية معالم العالم المعيش باستخدام الأمثل للمعرفة، وباستقرار المجتمع وتحقيق الاندماج بين الأفراد، ويتكوّن أفراد فاعلين يملكون القدرة على الكلام والفعل قادرين أيضا على تحمل مسؤولياتهم وتحقيق ذواتهم وتأكيد هوياتهم²، فأخلاقيات المناقشة لدى هابرماس تتم وفقا لصيغة تنص على مسؤولية الفاعل اتجاه تبعيات فعله وآثاره، ولما كان الفاعل هنا هو البشرية قاطبة فبالضرورة أن تكون المسؤولية أيضا مسؤولية جماعية.³ وتجلي ذلك بارتباط أخلاقيات المناقشة بالبعد السياسي وخاصة بمفهوم الحق والعدالة، وهذا أمر ضروري نتيجة الأوضاع التي باتت تهدد الإنسان، فبفعل سيطرة النزعة الأدائية وما

¹ محمد نور الدين أفاية، الحداثة والتواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، ص 177.

² عطيات أبو مسعود، الحصاد الفلسفي للقرن العشرين، ص 117.

³ عبير سعد، أخلاقيات المحاجة، مجلة الاستغراب، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، العدد 4، 2016، ص 189.

أدت إليه من انتهاك حقوق الإنسان وغياب العدالة السياسية والاجتماعية، فإن هابرماس يرى أن الوسيلة الوحيدة القابلة للتطبيق من أجل إصلاح المسار من منظور الأخلاق هي العملية الديمقراطية التي تستطيع تمدين السلطة السياسية المؤسساتية، وعلى كل، فإن الخطاب السياسي الذي يقود إليه هابرماس هو الآخر موضوع فلسفي كبير لا يسعنا المقام للتحدث عنه، ولكن ما نؤكد أنه هابرماس قد جمع بين الجانب النظري والتطبيقي من خلال تجسيد مشروع الفعل التواصلي كمشروع نظري إلى فضاء عمومي أو عالم معيش، فكل الأطراف الذين يدخلون في الحوار لابد لهم من تحقيق المصلحة الاجتماعية عن طريق نقاش عقلائي.

وما هذا إلا خطوة نخطوها في سبيل بناء جديد للعقل داخل المجتمع، فمن المفروض أن ترتد أفعالنا على النظام الاجتماعي الأوسع وبذلك نصعد من نمو العقلانية الأداة¹.

ما يمكن أن نخلص إليه في الأخير وبناء على ما سبق أن إتيقا المناقشة شكلت أهم المحاور التي ألفتها فلسفة هابرماس التواصلية على وجه العموم، وقد كانت هذه الإتيقا بمثابة ثمرة للاطلاع كل من هابرماس وكذا صديقه آبل على الأبحاث والدراسات اللغوية المعاصرة أو "المنعرج اللغوي" أين انتقلت اللغة من كونها جملة من الرموز والتركيبات إلى الاهتمام بما هي أداة للاستخدام التداولي بين الأفراد، والذي يتجلى بصورة واضحة في "المحاجة"، أين يسعى المشاركون خلال المحاجة الأخلاقية إلى رفع تلك الحواجز التي من شأنها أن تقف في وجه تحقيق التفاهم وتحقيق الإجماع حول جملة من المعايير التي يعترفون بها بصورة بنذاتية.

وتتميز إتيقا المناقشة التي يسعى هابرماس لتأسيسها أنها ذات طابع صوري كوني، ويتجلى ذلك من خلال ترسيخ مبدأ اتفاق جميع المشاركين في المناقشة على ربط زعم صلاحية المعايير بصفتهم مشاركين في مناقشة عملية واقعية تجرى في إطار عالم معيش، ومن جهة أخرى معايير غير مقتصرة على جماعة معينة أو طبقة خاصة أو جنس معين، يقدر ما هي شاملة لكل فرد عاقل قادر على الفعل والكلام، فمن توفرت فيه هذه الشروط يستطيع الدخول في المناقشة المحجاجة.

¹ -جون ليشته: خمسون مفكرا أساسيا معاصرا، ص 380.

كما أن هذه المعايير أو الشروط هي بمثابة شروط أولية تيسر الاستعمال الحجاجي للغة وعلى المرء الاعتراف بما قبل الدخول في المناقشة، وفي حال ما توفرت تحقق ما يعرف بالحالة المثالية للكلام والتي تعني أن الخطاب قد وصل إلى درجة جد راقية، تلغى فيه عن كل تلك السلوكيات الغير لائقة كالتسلط والقهر والعنف وتحل محلها قيم المساواة وتكافئ الفرص.

ولأن ارتباط المناقشة ليس بعيدا عن الواقع الاجتماعي أو العالم المعيش كما يسميه هابرماس، أصبحنا بفعل هذه الإتيقا نحتكم إلى قوة الرهان والحجة، فالعالم المعيش هو المحرك الوحيد للحجة أو البرهان، ومن ثم فإن هذه المعايير ليست افتراضات قبلية كامنة في العقل بل هي متولدة في العالم المعيش وفي خضم المناقشة الحجاجية ومنه ندرك أنها ليست متعالية بل على عكس ذلك هي واقعية، فهي جملة من الشروط تسبق كل إجراء تداولي وفي نفس الوقت تحتكم إلى العالم المعيش، إذن هي افتراضات غير قابلة لتجاوز ولكنها في نفس الوقت قابلة للنقد.

إلا أن هذا الطرح المتعلق بالتأسيس الصوري الشكلي لإتيقا المناقشة لم ينل رضى الرعيل الآخر لمدرسة فرانك فورت وصديق هابرماس وهو كارل أتو آبل الذي رفض هذا التأسيس مقدما في مقابل ذلك طرحا جديدا يتعلق بفكرة التأسيس النهائي للأخلاق وفي الفصل التالي سنحاول تقديم قراءة حول هذه التداولية ذات الطابع الترسدنتالي.

الفصل الثاني:

اتيقا المناقشة عند كارل أتو آبل

إتيقا المناقشة عند كارل أتو آبل

عند الحديث عنها برماس كفيلسوف تواصللي وأكبر ممثلي مدرسة فرانك فورت في جيلها الثاني إلا وتتطرق للحديث عن فلسفة زميله كارل أتو آبل، باعتباره كان السباق في طرح هذه المقاربة -مقاربة إتيقا المناقشة- ومن هذا المنطلق سنحاول النظر في المقاربة التي قدمها آبل فيما يتعلق بموضوع إتيقا المناقشة مع العلم أنه ورغم تأثر هابرماس بفكر زميله إلا أنه لم يتفق معه في كل ما ذهب إليه، وكما أشرنا سابقا أن هابرماس سعى في تأسيسه لإتيقا المناقشة من خلال ما يعرف بالتداولية الصورية "الكلية" في حين أن آبل سعى لتأسيس إتيقا المناقشة انطلاقا من تداولية ترسدنتالية متعالية، وفي هذا الفصل سوف نحاول النظر إلى إتيقا المناقشة التي سعى آبل لتأسيسها أو ما يعرف عنها بالتأسيس النهائي أو التداولية الترسدنتالية، وقد تم التطرق فيه إلى المرجعية الفكرية لأخلاقيات المناقشة عند آبل، أما المبحث الثاني فقد تطرقنا فيه إلى كيفية استثمار آبل للإرث الكانطي وتحويله إلى فلسفة تواصلية ذات طبيعة متعالية، في حين جاء المبحث الثالث مبينا موقف آبل من أنصار النزعة النقدية التي اعتبرت من بين النزعات الفلسفية التي تضرب أطروحته في صميمها.

المبحث الأول: المرجعية الفكرية لأخلاقيات المناقشة عند كارل أتو آبل*

أولا: آبل وموقفه من الفلسفات السابقة عليه.

أمام عالم تسوده التقنية من كل جانب وتحكمه التكنولوجيا، بات الإنسان المعاصر الراحل من عالم الإدراك والتأمل والتفكير إلى عالم التقنية والتكنولوجيا والإنجازات المادية، يتخبط في ويلات ما صنعت يداه في مقابل ما قدمت الحداثة للإنسان من تقنيات سهلت عليه الكثير من المهام الصعبة التي كان يقوم بها، وأصبح ما كان بالأمس صعبا سهل المنال اليوم، فاقصر بذلك الوقت ووفر على نفسه الجهد، إن النتائج التي حققها العلم ما تزال إلى يومنا مثار دهشة، إلا أن الإنسان دفع مقابل ذلك ثمنا غاليا، ففي الوقت الذي تقزمت فيه دور الفلسفات الأخرى ومنها الوضعية على تقديم طرح جديا للمشكلات العميقة، إن فكرة الموضوعية العلمية تبدوا هنا عاجزة عن التأثير¹ وقد صرح عمر مهيل في مقدمة كتاب إتيقا المناقشة لهابرماس أن هذه المتوجات المادية الناتجة عن ذلك التطور المادي يسرت على الإنسان الكثير من الصعوبات الغابرة، لكن أن تتحول إلى ديانة جديدة فهنا مكن الأشكلة.²

ولهذا نجد أن آبل يلح على ضرورة بناء الأخلاق النظرية الكلية ذلك أن الأخطار التي تهدد الإنسان ووجوده ليست خاصة بطائفة معينة أو جنس خاص، وكما هي ليست مشكلة فردية أو شخصية بقدر ماهي

* - كارل أتو آبل: (K.otto.Apel) ولد في (15 ، 03 ، 1922) بمدينة دولسدروف، فيلسوف و مدرس فلسفة ألماني معاصر، يعد من أهم رواد مدرسة فرانك فورت أو النظرية النقدية في جيلها الثاني، ويعتبر آبل من أهم زملاء هابرماس ويعود الفضل إلى آبل في تأسيس ما يعرف بالتداولية الترشدنتالية في مقابل التداولية الصورية لهابرماس، وبهذا يكون من المحددين للفلسفة للفلسفة الكانطية المتعالية لكن بصياغة جديدة وذلك من خلال ربطها بالغة فهذه الأخيرة بالنسبة له تشكل شرطا قريبا في كل عملية فهم، وقد اندفع في هذا الأفق بتأثير العديد من الفلاسفة أمثال فيتجنشتين و بيرس و ها برماس و بخاصة هذا الأخير، انظر، فلسفة التواصل لجان مارك فيري ، من أهم مؤلفاته:

- التفكير مع هابرماس ضد هابرماس

- فكر اللغة في المأثور من دانتي إلى فيكوا (1963)

- تحول الفلسفة (1973)

¹ - جاكين روس، الفكر الأخلاقي المعاصر، ص 67.

² - يورغنهابرماس، إتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، ص 12.

مشكلة جماعية يتحمل مسؤوليتها كل إنسان عاقل على وجه الأرض، وبالتالي نجد أن الأطروحة الأساسية التي طبعت مشروع آبلتتمثل في ادعائه إمكانية تأسيس الأخلاق فلسفياً، تيمنا بما فعله كانط بما أن الأخلاق هي صلب إشكالية العلوم الإنسانية وهذا لا يعني في أي حال من الأحوال السقوط في غياهب الميتافيزيقا التقليدية لأن هدف آبل في النهاية بلوغ الدقة والصرامة العلمية.¹

ويتضح لنا مما سبق وأشرنا إليه من خلال قول آبل نفسه: «أود أن أقترح أن التأسيس النهائي التداولي الترسدنتالي لا يضمن أي تراجع باتجاه الميتافيزيقا الدوغماتية بل أنه وعلى العكس من ذلك تماماً، يوفر لنا الوسائل التعبيرية بعض أشكال الميتافيزيقا المقنعة ذات التأثير البالغ اليوم وهي: الاختراوية العلمية للمشروع من نمط "لا شيء غير" والاقترحات التاريخاوية من نوع "هذا أو ذاك بال التي تحل محل الحجج"² ولقد ظل آبل متمسكا بالخطاب الترسدنتالي، ويرى أن الوظيفة النهائية للفلسفة هي إنتاج خطاب ترسدنتالي متعالي والذي من شأنه أن يحدد الكيفية نظامية شروط إمكانية الصلاحية.

فالخطاب الترسدنتالي يوفر الأسس النهائية لكل فلسفة نظرية وعملية ولكل علم، ولنلمس هنا تأثير آبل بالفلسفة الكانطية النقدية، والتي بنيت أساساً على ضرورة أن تجيب كل نظرية عن الشروط الترسدنتالية لوعي الذات أو للمعرفة³، فقد خلفت الحداثة تركة خطيرة، امتد خطرها وتهديدها إلى الإنسان ذاته، بل ونجدها قد تجاوزت ذلك بكثير، إذ أصبح الكون الذي يجمع البشر جميعاً ذاته مهدداً بخطر الزوال.

ففي ظل هذه الأوضاع المتداخلة والمتقلبة أصبح الإنسان يعيش في ظل مفارقة مردها إلى طبيعة العلاقة التي تجمع اليوم العلم وما يقدمه من إنجازات تقنية وبين الإتيقا أو الأخلاق، أو بصيغة أخرى نقول ماهي حقيقة

¹ - كارل أتو آبل ، التفكير مع هابرماس ضد هابرماس ، ص 48.

² - نفسه، ص 42.

³ - جميلة حنفي، من الحداثة إلى المعقولة التواصلية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الفلسفة، جامعة الجزائر، 2011_2012، ص 191.

النتائج الأخلاقية للتطور العلمي؟، وخاصة بعد أن أخذ هذا النموذج العلمي بعدا يتسم بنوع من المغالاة، إذ أصبح العلم والمادة والتقنية هي المعيار الوحيد الذي تقاس عليه العقلنة، هذا الأمر جعل من النزعة العلمية تخرج عن نطاقها الصحيح فانقلب السحر على الساحر.

ما جعل الكثير من النظريات والمذاهب الفلسفية غير قادرة على استيعاب كل هذه التغيرات والمتناقضات والمفارقات التي بات الإنسان المعاصر يتخبط فيها، فأصبح عالمنا مسرحا لأسوء الجرائم و عرضة لأخطر الكوارث عنوانه حروب وتفجيرات ذرية ولعل تفجيرات هيروشيما ونكازاكي خير شاهد على تلك الفضائح الإنسانية التي حدثت باسم العقل، ما جعل الكثير من الفلاسفة والمفكرين يعيرون هذا العقل وما حققه ويشنون هجوما عنيفا عليه أو بالأحرى بقصد العقل الأداتي الذي سيطر على مختلف مظاهر الحياة، ولعل أهم منتقدي هذا العقل هم رواد مدرسة فرانك فورت في جيلها الأول أو أصحاب المدرسة النقدية.

1- الفلسفات العملية:

انطلاقا من هذه الأوضاع اتجه آبل نحو الأخلاق النظرية بغية تأسيس إتيقا المناقشة، ولقد لاحظ أن هذه الأخيرة باتت تشهد تحديا يتمثل في جملة العواقب غير المتوقعة التي يمكن أن تترتب على كل تلك المتغيرات والتطورات التي يشهدها العالم الغربي، ويميط اللثام عما يشكل عائقا في وجه تأسيس أخلاق نظرية بالمقياس العادي تأسيسا عقليا صالحا للمجتمع الإنساني بأسره¹، ذلك بغية تأسيس الأخلاق تأسيسا شاملا وكمليا يظم جميع البشر على اختلاف أجناسهم وإيديولوجياتهم، وذلك من خلال تأسيس الأخلاق على العقل.

فالعقل وحده كفيل بتحقيق هذه الغاية إذ باتت حاجتنا إلى الأخلاق، وخصوصا في الوقت الراهن أمرا حتميا، وفي محاولة آبل لتأسيس إتيقا المناقشة قام بدراسة مسحية للفلسفات العملية السابقة التي عرفتها الفلسفة عبر تاريخها، وقد توقف أمام ثلاث مصادر أساسية وتمحور حول فلسفة أرسطو الأخلاقية، وفلسفة المنفعة أو البرغماتية، وأخيرا وليس بآخر الفلسفة الكانطية.

¹ - جاكلين روس، الفكر الأخلاقي المعاصر، ص 67.

أما الأولى -أي فلسفة أرسطو- فقد قابلها بالرفض باعتبار أن الأخلاق الأرسطية تقتصر على تصور الخير أو السعادة على الذات أو جماعه محدودة، لا الإنسانية جمعاء وهنا مكن الضعف في الحل الأرسطيفآبل ليس هدفه تحقيق هذا النوع من الخير والسعادة المقتصرة على جماعة معينة، بل الأمر يتعدى ذلك بكثير إذ يمتد للبشرية قاطبة.

كما رفض كذلك الفلسفة البرغماتية لأن غايتها تحقيق المنفعة فمعيار الحكم على الأشياء والأفكار يتحدد بمدى ما تحققه من مصالح ومنافع، ولكن هذا الأمر عينه قد يوقعنا في تناقض لاعتباره معيار نسبي يتغير بتغير الذوات، وبالتالي فهذا يحيل إلى النسبية، فما أراه أنا خيرا قد يراه غيري عكس ذلك، وما ترضاه جماعة معينة قد تنفر منه جماعة أخرى.

2- الفلسفة الوجودية والوضعية:

في السياق ذاته رفض آبل كل من الفلسفة الوجودية والفلسفة الوضعية لأنهما لم يفلحا في نظره من تقديم حلول كافية كفيلة بإخراجنا من هذه الأزمة الأخلاقية، فالفكر العلمي أو الوضعي يحرص على بلوغ الموضوعية من الناحية الفلسفية وهو أمر يشترط النظر إلى القيم من موقف أكسيولوجي حيادي بوصفها قرارات واختيارات ذاتية وهو نفسه ما ذهبت إليه الوجودية حيث عملت على تأكيد الاختيار الأخلاقي الذاتي¹ وتذهب "جاكلين روس" إلى أن آبل يرى أن الفلسفة التحليلية والوجودية تتكاملان بأحرى بدل من تناقضهما في وظيفتهما الإيديولوجية إن أحدهما تشد إزر الأخرى بنوع من تقييم العمل إذ تعترف إحدهما للأخرى بالتبادل مجال المعرفة الموضوعية وبمجال القرارات الأخلاقية،² كما أن الفلسفة التحليلية والوضعية عندما يقبلان على ماهو علمي تجريبي واقعي أو بصيغة أخرى على إشكالية العلمية، ويفترضان في ذلك أنهما يمتازان بالحيادية القيمة، باعتبار أن موضوعية العلم تفرض حيادية قيمة حسبهم فإن آبل لديه وجهة نظر

¹ - جميلة حنفي، يورغنهابرماس من الحداثة إلى المعقولة التواصلية، ص 190.

² - جاكلين روس، الفكر الأخلاقي المعاصر، ص 69

مغايرة لهذا التصور الذي يؤمن بأن العلم بصفة عامة بعيد عن القيم، بل الأمر عكس ذلك تماما، بل إنهما (التحليلية والوضعية) يفترضان فرضا مسبقا وضروريا في الآن نفسه وجود أخلاق نظرية، إذن فالموضوعية العلم بدلا من ادعائها الحيادية القيمية (الأكسولوجية) فإنهما تلزم بالفعل وجودها أو توافرها مسبقا كفرض ضروري، ويتمثل هذا الفرض في وجود جماعة البرهنة، وتطرح جاكلين روس في هذا السياق سؤال يتمحور حول لماذا ينبغي على العلم والمنطق الرجوع ضمنا إلى الأخلاق النظرية؟ وكيف تصبح الأخلاق شرطا لإمكانها ذاته؟ إذ يصبح انطلاقا من هذا التصور لا وجود للعلم ولا للمنطق في غنى عن الأخلاق.

الإجابة وبكل بساطة تتمثل في أن البرهان الذي يستخدمه العالم لتدليل حول نظرية علمية معينة، لا يمكنه على الإطلاق أن يصبح برهان منطقي ما دام في غنى عن جماعة التواصل (جماعة العلماء)، لأن البرهان من حيث صلاحه المنطقي يحيل دوما على جماعة مفكرين يتوصلون إلى تفاهم بين أشخاصهم.¹

فحتى العالم ذاته ينغزل عن العالم وأشخاصه، داخل محبره وينكب على بحثه منفرد، فإنه بطريقة أو بأخرى يخضع برهانه أو استدلاله لجماعة يرجع إليها رجوعا بالقوة، إذ لا سبيل آخر غير رجوعه إلى هذه الجماعة بغية تقديم برهنة عقلية مشتركة لدى الجميع، فلولا اتفاق الجماعة عليها عقليا لما أصبحت في حد ذاتها برهانا علميا أو نظرية علمية.

ومن ضمن المقاربات التي استبعدها آبل حتى يتسنى له تأسيس ترسدتالية نجده قد أكد أن المشاعر الأخلاقية والاستعدادات النفسية لا يمكن اعتبارها مبادئ لتأسيس الأخلاق، فالشفقة والرحمة والتعاطف والرفق لا يمكن الاعتراف بها لأنها لا تنسجم مع المشكل النوعي لإتيقا المناقشة والخاص بتأسيس عقلاني للواجبات من حيث هي التزامات وضغوط، وعلى العكس يمكن اعتبارها عواطف محفزة تجريبيا وضرورية لتحقيق المعايير وهي فكرة كانطية الأصل، حيث يقول كانط في هذا السياق " والواقع أنه يستحيل استحالة مطلقة، أن يحدث عن

1- جاكلين روس، الفكر الأخلاقي المعاصر، ص 69.

طريق التجربة وبيقين تام حالة واحدة قامت فيها مسلمة فعل من الأفعال المتفقة مع الواجب"¹، فكانت يحيل هنا أن التجربة مهما بلغت من الدقة فإنها غير قادرة على تقديم معرفة كلية وبالتالي فالميول والرغبات والحالات الشعورية المختلفة لا يمكنها على الإطلاق أن تقدم لتأسيس مطلق للأخلاق، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن كانط يرفض أن تستمد الأخلاق من الطبيعة البشرية لأنها متغيرة، بل أساسها العقل، فبفضل هذا الأخير وحده يحدث الاتفاق.

3- الفلسفة الكانطية:

وأمام جميع هذه المقاربات التي اعتبرها آبل مقاربات تكميلية لم يبقى له من معين لتأسيسه سوى فلسفة كانط مع أنه لم يتبناها كلياً كما هي، وذلك لوجود عدة نقائص فيها ذلك أنها فلسفة منغلقة على ذاتها فقد كانت فلسفة كانط منغمسة في فلسفة الوعي تنظر إلى الذات وكأنها المركز، فالإنا هي ذات مفكرة، وهي موضوع الفكر ذاته، وما يجعلنا أمام هذه الفلسفة وكأننا أمام مناجاة داخلية تناجي العالم الداخلي المنعزل والمنغلق على ذاته فهذه الانطوائية أبعدت الذات في التفكير عن حقيقة التواصل البنذاتي، فهو لا يريد له أن يكون العقل التأملي المكتفي بذاته، وإنما من فعل العقل التواصل المنفتح على الجماعة فلا يستند إلى عقلانية كيانية تزعم مطابقة الواقع في جوهره، وإنما عقلانية ذات طابع إجرائيكتفي بتحديد القواعد التي يصح بها المطلوب.²

مما جعل آبل يتوجه نحوى إعادة بلورة هذا الفكر الانطوائي على الذات إلى فكر تواصلية بنذاتي معتمداً في هذه التحويلية على وساطة اللغة وتفضل هذه التحويلية تغيرت الفلسفة الترسدنتالية لوعي الذات إلى

¹ - امانويلكانط، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة: عبد الغفار مكاوي، منشورات الجمل، ألمانيا، ط1، 2002، ص 66.

² - طه عبد الرحمان، تعددية القيم: ما مداها؟ وما محدوديتها؟ كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش، ط1، 2001، ص25.

فلسفة ترسدنتالية لجماعة برهانية تتواصل فيما بينها بدلا من أن يكون آبل متمثلا لذات وعي متعال يريد أن يكون ممثلا لذات مجادلة من حيث هي عضوا في هذه الجماعة أو تلك بين الجماعات المجادلة.¹

وقد سعى آبل لتأسيس عقلائي لمبادئ إتيقا المناقشة من خلال تحويل فلسفة كانط من فلسفة قائمة على الوعي الذاتي إلى مجال أرحب و أوسع ليشمل الآخر من خلال فلسفة التواصل والتداوت فإنه يلزم هذه الإتيقا أن تضع جملة من الافتراضات المسبقة المتجددة داخل الفلسفة الغربية وتحديدًا منها الفلسفة الحديثة وتمثل هذه الافتراضات في:

أ- الأنانية المنهجية Solipsisme أو الترسدنتالية وهي مرتبطة بمطلقية العلاقة الثنائية للذات والموضوع في المعرفة والتي من شأنها أن تحول دون تحقيق تداولية قائمة على أساس التواصل البندي القائم على التفاعل والتكامل للذوات المتجاورة.

ب- النظر إلى اللغة والتواصل بوصفهما عاملين ثانويين بالقياس إلى الفكر الذي يتميز باكتمال الذات باعتبار أن اللغة والتواصل وسيلتين لاستقرار المعرفة أو نشرها بين الأفراد، فالفكر في هذا الافتراض له الأولوية على اللغة فهو من يصنع اللغة لا العكس.

ج- فهم فعل التأسيس بما هو استنباط لشيء من شيء آخر.

د- الافتراض القائم على اعتبار أن للمعقولة وجهان لا غير وهما المعقولة المنطقية الرياضية والمعقولة الأدائية.

هـ- وما يتعلق بمبدأ التأسيس النهائي فإنه يتطلب الاستناد إلى مبادئ صالحة مطلقة وكونية ومفارقة لما هو تاريخي أو تجريبي أو نسبي.²

وحتى ينجح آبل في تأسيس تداولي ترسدنتالي لا بد له من تجاوز خاصة الافتراضين الأولين باعتبارهما يعقان بالفعل ويقدر كبير تأسيس إتيقا المناقشة، فالأنانية المنهجية تفترض ذاتا منعزلة مكتفية بذاتها وهذا من شأنه

¹ جميلة حنفي، يورغنهارماس من الحداثة إلى المعقولة التواصلية، ص 191.

² يورغنهارماس، إتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، ص 13.

أن يحول دون تحقيق تواصل بنذاتي إذ لا بد من النظر إلى الذات بوصفها ذاتا مناقشة ومحاوره مرتبطة مع الآخر في علاقة تفاعل وتكامل بنذاتي، أو هذا ما ينتج عنه مباشرة تحول دور اللغة من حامل الأفكار، وذات فاعلية ثانوية، فاللغة تصبح وسيطا داخل ثنائية الذات والموضوع بل باتت تلعب دور المراقب لاستمرار هذه العلاقة.¹

ثانيا: التداوليات اللسانية كرافد في بناء التداولية الترسدنتالية

وفي محاولة آبل لتأسيس إتيقا المناقشة قام بتقديم بديل يتمثل في تحويل براديجم فلسفة الوعي إلى فلسفة اللغة، ويتمثل هذا البراديجم في تداولية قوامها البرهان اللغوي والتفاعل الخطابي لمواجهة المستقبل المظلم والمسدود والانكباب على إرساء وتوطيد معاني البنذاتية ودعوات التداوت²، ولا يتم هذا الانتقال إلا من خلال تحرير الفلسفة من قيود الميتافيزيقا والتوجهات الغيبية، وهنا نجد دعوة آبل واضحة وجلية وتمثل في توظيف أخلاقيات تداولية بدلا من الأخلاقيات الروحية الموروثة وبدلا من الدعوة إلى أحسن أنقى أي الخطاب العاطفي إلى أخلاقية جديدة أساسها الخطاب البرهاني والحجاجي والإقناع من خلال تقديم البراهين دلالة على كل قول أو فعل.

وبهذا تكون العقلانية التواصلية هي وحدها الأداة الكفيلة لإنقاذ العقل الغربي من الغرق في غياهب العقل الأداتي أو التواصلية التداولية، فهذه الأخيرة تسعى إلى تحقيق الاتفاق والتفاهم المتبادل بين الأطراف المتحاوره والمناقشة بغية بناء نسيج اجتماعي أكثر تماسكا وعمقا، ولأن طموح آبل يتمثل في تحقيق ما يعرف بالتداولية الترسدنتالية من خلال تحويل ترسدنتالية كانط المتمحورة حول الوعي، لذلك نهل من الفلسفات التداولية وبتحديد من مجال الأبحاث اللسانية المعاصرة التي استطاعت بالفعل أن تتحرر من ذلك المنظور الضيق نحوى اللغة بوصفها أداة للتعبير عن المشاعر والأغراض المختلفة التي يريد الإنسان التعبير عنها، لتأخذ اللغة مجالا

¹-يورغنها برماس، إتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، ص 13-14.

²- علي عبود الحمداوي وآخرون، مدرسة فرانكفورت النقدية، دار الندم للنشر والتوزيع، الجزائر، دار النوافذ الثقافية، لبنان، ط1، 2012، ص

أوسع من ذلك، أين بات ينظر إليها كأداة للتواصل والتبادل، فدرست الأغراض الفعلية والنفعية للخطاب وحددت دلالة الملفوظ بإحالتها إلى سياقها ومحيطها التداولي الخاص وظروف ملاسبات التلفظ.¹

فلم تعد اللغة من هذا المنظور حبيسة ذلك التصور بل أصبحت تمثل أداة محورية تحمل قيم وأفكار ومعتقدات وحالات شعورية بل حتى ثقافات وانفعالات الأفراد، لقد تجاوز آبل ومن والاه تلك النسقية المغلقة نحوى تداولية تعنى بالفاعلية والتفاعلية بين الأفراد وذلك من خلال اللغة فهذه الأخيرة كما يرى جان مارك فيري أن العنصر المحوري في هذه التداولية كما هو في كل تداولية وهو اللغة، واللغة في بعدها الحوارى الخطابي الإدراكي الذي يجعل منها الأداة المفضلة في التواصل البنذاتي ومن ثمة أداة للفهم البنذاتي (intercom préhession)² فاللغة من منظور جان مارك فيري* كائن حي منفتح على هموم الإنسان وقضاياها وما عليه أن يحسن ترتيبها فتصير اللغة هي أفعال الإنسان.

إن إتيقا التواصل اللغوي هي أرقى أنواع التواصل من هنا تطرح الطبيعة الايتيقية للتواصل ومنها ننطلق لبعث إتيقا معينة للتواصل ما دامت رسائل التواصل المتبادلة بين المرسل والمتلقي غير بريئة، فهي بالمقدار نفسه يمكن أن تكون أداة للصراع وسوء التفاهم.³

لقد نهل آبل من عدة مشارب تداولية معاصرة بهدف تأسيسها من منظور تداولية تواصلية بنذاتية وهي

على التوالي:

1- المنعرج اللغوي:

¹ - نفسه، ص 249.

² - جان مارك فيري، فلسفة التواصل، ترجمة وتقديم، عمر مهيل، الناشر: منشورات الاختلاف. الجزائر، المركز الثقافي العربي، لبنان، الدار العربية للعلوم-لبنان، ط01، 2006، ص 18.

* - جون مارك فيري 1951 Ferry.Marc: فيلسوف ومفكر فرنسي معاصر انصب اهتمامه على الفلسفة الألمانية تأليفا وترجمة خاصة فلسفة هيرماس التواصلية، من أبرز مؤلفاته فلسفة التواصل.

³ - شريفي أنيسة، فلسفة أخلاقيات الحوار عند هابرماس، مجلة الحوار الثقافي، مخبر حوار الحضارات، العدد 9، 2016، ص 137.

تعود بدايات المنعرج اللغوي إلى مجهودات العديد من فلاسفة اللغة الذين حاولوا تخلص اللغة من تلك النظرة القاصرة لها، وذلك باعتبارها أكبر من انحصارها في جملة من المفردات نصف بها هذا العالم، أو تعبير عن مشاعرنا وخواطرننا وكل ما يجول في أذهاننا، وتعود بدايات هذا المنعرج إلى عالم اللغة الكبير تشارلز موريس (Charles Morris) حين ميز عدة أقسام في كلام اللسانيات وذلك في مقال كتبه في موسوعة علمية بين مختلف الاختصاصات بين عدة علوم في اللغة وهي على التوالي:

علم التركيب والذي يعنى بدراسة العلاقة بين العلامات، وعلم الدلالة والذي يهتم بالبحث في العلاقة بين الدال والمدلول أو المعنى التي تدل عليه الملفوظات، أما العلم الثالث فهو علم التداولية، وهذا الأخير هو العلم الأبرز في اللغة فهو ينظر في العلاقة بين اللغة ومستخدميها متجاوزا في ذلك المنظور التقليدي للغة.¹ فالفكرة الأساسية للتداولية في الطبعة الحديثة أو الفعلية أو الإنجازية للإنتاج اللغوي باعتبار أن القول ليس مجرد ممارسة فيزيولوجية، بل أنها فضلا عن ذلك هي سلوك لغوي أو فعل اجتماعي وهنا تبرز النقطة النوعية في اللسانيات التداولية التي تجاوزت في دراسة إنتاج البنية الصوتية والنحوية والدلالية إلى البحث عن الآثار الاجتماعية ولإنجازيه للغة.²

فأصبحت اللغة في هذا الفضاء توحى إلى الممارسة والفعل، وقد كان بيرس هو الآخر صاحب تأثير كبير في المسار التداولي عند آبل³ ذلك أنه كان من الأوائل الذين أسسوا التداولية وذلك من خلال ما يعرف بنظرية المعنى عنده، فهذه الأخيرة كانت عبارة عن نظام فلسفي يسعى لتفسير المدلولات أو الملفوظات بحسب ما تحققه من نتائج على أرض الواقع، فاللفظ أو الحد الذي يتطابق مع الواقع، بل أبعد من ذلك فهو ينجز فعلا

¹ - أن رويول، جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس، محمد الشيبيا، مراجعة: لطيف زيتوني، دار الطليعة للطباعة والنشر-لبنان، ط01، 2003، ص 29.

² - عبد الحليم بن عيسى، المرجعية اللغوية في النظرية التداولية، مجلة دراسات أدبية، مركز البصيرة للبحوث والاستشارات، العدد الأول، الجزائر، 2008، ص 12.

³ - علي عبود المحمداوي وآخرون، مدرسة فرانك فورت النقدية، ص 250.

من ورائه وهذا الفعل لايد من أن يحقق منفعته في هذا العالم المحسوس، وإن كان في حقيقة الأمر أن يبرس نفسه لم يكن يسعى لتحقيق هذه التداولية بقدر ما كان ميالا لنزعة فلسفية قائمة على المنفعة.

2- الفلسفة التحليلية:

إن الفلسفة التحليلية هي الأخرى قد أولت اللغة اهتماما بالغا من حيث منطقتها وفلسفتها لكن بصورة واقعية ملموسة، فهي لم تحدد عن الواقع بشيء في استعمال (اللغة) ولقد تأسست هذه الفلسفة على يد الفيلسوف المنطقي الألماني غوتلوبفريجة* (1925-1848 Cottlobfrege) من خلال كتابه "أسس علم الحساب" فمن أهم التحليلات التي قام بها فريجة حول اللغة والقضية هو تمييزه بين مقولتين لغويتين تتباينان مفهوما ووظيفيا وهما اسم "العلم" واسم "المحمول" وهو عماد القضية الحملية، فالجديد الذي جاء به هذا الفيلسوف في نطاق البحث اللغوي هو رؤيته الدلالية خصوصا، وتميزه بين اسم المحمول واسم العلم كما رأينا وبين المعنى والمرجع محدثا قطيعة معرفية ومنهجية بين الفلسفتين القديمة والحديثة.¹

ومواصلة لما تقدم به فريجة يواصل فيتجنشتين أثره، مؤسسا بذلك نسقا فلسفيا جديد في فضاء فلسفة اللغة أطلق عليه اسم فلسفة اللغة العادية، وكان هذا بعد تحول فيتجنشتين من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثانية فحديثنا هنا يشمل فيتجنشتين الثاني فقط، ويدور محور فلسفة اللغة العادية التي أسسها فيتجنشتين أن معنى اللفظ غير ثابت حتى لو كان واحدا، فهو قد يحيل إلى مدلولات مختلفة بسبب استخدامنا إياه في الجملة، فالكلمة الواحدة قد تحيل إلى مدلولات مختلفة بسبب استخدامنا إياه في الجملة، فالكلمة الواحدة قد تأخذ معنى الإيجاب في جملة، ومعنى السلب في جملة أخرى، مؤكدا في الوقت نفسه ضرورة الابتعاد والحذر في الوقوع في فجوة البحث المنطقي والعلمي المرتبط بالواقع والوقائع الملموسة، وهنا يتضح جليا البعد التداولي في فلسفة اللغة عند فيتجنشتين. ذلك أن المعنى يتحدد في سياق الاستعمال، فالبعد التداولي والتقييمي للغة عند فيتجنشتين

* - غوتلوبفريجة(1925-1848 Cottlobfrege): أحد أكبر المناطق بعد أرسطو يعود له الفضل في إنشاء المنطق الحديث.

¹ - حافظ إسماعيل علوي وآخرون، التداوليات: علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2001، ص 34.

ميزة اجتماعية، وهذا ما يصبوا إليه آبل فالمتكلم خاضع أثناء كلامه إلى صيغ وتراكيب مجتمعة، فالألفاظ ترتبط بأشكال الحياة والممارسة والنشاطات التي نحيهاها.¹

وعندما ألقى اللغوي جون أوستين محاضراته "محاضرات وليام جيمس" سنة 1955م لم يكن يفكر في تأسيس اختصاص فرعي للسانيات بقدر ما كان يهدف إلى وضع أحد الأسس التي تقوم عليها الفلسفة التحليلية الانجلوسكسونية ويتمحور هذا الأساس حول أن اللغة لا تهدف سوى إلى وصف الأشياء الخارجية فكل الجمل عدا الوضعية، الأمرية والتعجبية يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، وهذين الصفتين يتحددان بناء على مدى مطابقة هذا اللفظ مع الواقع، في حين أنه في الواقع هناك الكثير من الجمل التي لا يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب رغم أنها ماهي بوضعية ولا تعجبية ولا استفهامية ومع ذلك لا يمكن الحكم عليها لا بالصدق ولا بالكذب.²

ومنه فهذه الجمل لا نستعملها لوصف الواقع أو التعبير عن أغراضنا بقدر ما تسعى لإحداث تعبير فعلي على مستوى الأفعال، فهي ليست قائمة على تصورات بقدر ماهي قائمة على أفعال ومن أمثلة ذلك: أعدك بزيارتك غدا، إن هذا الطعام يسبب لك الحساسية، إن مثل هذه الجمل لا يمكن القول عنها أنها تصف الواقع فلا يحكم عليها بالصدق أو الكذب بل هي جمل تستدعي أفعالا حال سماعها، فالجملة الأولى على سبيل المثال تفرض على الإنسان المستقبل أن يجهز نفسه لاستقبال ضيفه، والثانية تفرض على الشخص الامتناع عن تناول ذلك الطعام، وغيرها من الملفوظات التي ينجر من ورائها أفعال لا أحكام.

وقد بين أوستين أننا حين نتكلم فإننا ننجز ثلاثة أفعال كلامية:

أ- فعل القول (أو الفعل اللغوي) (Acte locutoire) ويتعلق هذا الفعل ببناء الجملة بناء تركيبى نحوي صحيح وسليم.

¹ - علي عبود المحمداوي وآخرون، مدرسة فرانكفورت النقدية، ص 253.

² - أن ربول، جاك موشلار، التداولية اليوم علم الجديد في التواصل، ص 30.

ب- فعل المتضمن في القول: (Acte illocutoire) وهو الفعل الانجازي الذي يشير إلى لزوم فعل مع قول ما "فهو عمل ينجر بقول ما".

ج- الفعل الناتج عن القول: وهو الفعل التأثيري، حيث يرى أوستين أنه ومع القيام بفعل القول وما يصحبه من فعل متضمن في القول، ذلك أن المتكلم قد يكون قد حقق من وراء قوله إثارة المشاعر والفكر بغية التأثير في المستمع ومن أمثلة ذلك الإقناع، الإرشاد، التظليل، التشجيع¹

أما سيرل هو الآخر فقد طور نظرية أستاذه أوستين خاصة على صعيد المقاصد والمواضع، فنظرية الأفعال اللغوية تقر بوجود الحالات الذهنية لأنها تقر بشكل خاص المقاصد التي تترجم هذه الأخيرة إلى أعمال لغوية لأي جمل خاضعة، غير أن أبحاث بول غرايس (Paul Grice) هي الأخرى من الأبحاث التي نالت حظاً من الأهمية وخاصة بعد اقتراح غرايس لمفاهيم أعمق وأعم من مفاهيم أوستين وسيرل، ويتعلق الأمر بمفاهيم تنظيمية للتواصل عنها إنه مؤسس لمبدأ التعاون داخل التبادل التعاوني حول مقاصد المشاركين وهذه المقاصد ليست صريحة ومعلنة في الواقع من أطراف التواصل والتبادل والحال أنها عبارة عن عناصر حقيقية تعتمد في شكل اتفاق ضمني من قبل المتخاطبين الذين يقومون على مجرى التواصل الحسن وبموجب لعبة ذكية من الاستنتاجات.²

¹ - حافظ إسماعيل علوي وآخرون، التداوليات: علم استعمال اللغة، ص 53.

² - علي عبود المحمداوي وآخرون، مدرسة فرانك فورت النقدية، ص 258.

المبحث الثاني: أخلاقيات المناقشة من ترسدنتالية الوعي الذاتي إلى ترسدنتالية التواصل البنذاتي

أولاً: تجاوز الفلسفة الكانطية.

تقوم نقطة انطلاق كارل أتو آبل في تأسيسه لأخلاقيات المناقشة بالاعتماد على التداولية الترسدنتالية على منطق تواصل البشر جماعياً، وهذا أمر لا يمكن رفضه أو تجاهله، فكل من يأتي بمفوضة ويقدم تعبيراً تدليلاً على مشروعية ما عليه أن يعترف بشكل مظهر شروط إمكانية التواصل ولا يستطيع أن ينكرها دون أن يقع في تناقض مع نفسه¹، حيث يذهب آبل إلى التأكيد على أنه كلما التزمت الذات القائمة في إطار المناقشة على إقامة البيئة على ما تقول، فهي تهدف إلى إثارة تراضي عقلاي يقوم على صلاحيته الادعاءات المقترضة فيها.

مما يتحتم عليها بالضرورة القبول بمجموع الافتراضات القبيلية أو شروط الحالة المثالية للكلام والتي يتطابق مضمونها مع خصائص جماعة التواصل اللامحدود التي ينتمون إليها.² كما سبق وذكرنا بأن كارل أتو آبل لم يجد له من معين لتأسيسه سوى الفلسفة الكانطية لما تحمله من مدلول كوني ترسدنتاليمع أنه لم يتبنى هذه الأطروحة أو الفلسفة بطابعها الكلي، بل قام بتحويلها وبناءها من جديد حيث تتناسب مع مقاربة التداولية الترسدنتالية حيث حررها (الفلسفة) من إطارها وعي الذات الترسدنتالي إلى فلسفة متعالية لجماعة الحجاج (جماعة التواصل) أي الحجاج (التواصلية) بدلا من أن يكون ممثلاً لذات الجماعة أو تلك الجماعات المادية³، فمحاولة آبل تسعى لتجاوز الفهم الاعتباطي المتمركز في ذاتية الفرد المنعزل، وأن تحيل المفترضات

¹ - بيتر كونزمان وآخرون، أطلس الفلسفة، ص 233.

² - حسن مصدق، مدرسة فرانك فورت النقدية، المركز الثقافي المغربي، ط01، 2005م، ص 150.

³ - جميلة حنيفي، يورغنهابرماس، من الحداثة إلى المعقولة التواصلية، ص 191.

المسبقة للتواصل هو الذي يتيح إتمام هذا المعنى، لكنه أيضا يتيح ضرورة رجوعه إلى الفاعل الكانطي الذي يرقى إلى منزلة التفكير الذاتي المتعالي.¹

ولما كان آبل لا ينظر للذات بمعزل عن جماعة التواصل الترسدنتالية فإنه قرر أن يقدم بعدا آخر للفلسفة الكانطية التي تموقعت على الذات، لتلقي بذلك فعالية للتواصل البنذاتي، معتمدا في ذلك على وساطة اللغة التي اعتبرها بمثابة الوسيط في هذه العملية، وهنا يتفق آبل مع زميله هايرماس حول ضرورة النظر إلى اللغة في بعدها التداولي الاستخدامي اليومي وباعتبارها أداة للمحاجة.

وقد سجلت أخلاقيات المناقشة التداولية تقدما بالمقارنة لمفهوم الأخلاق الكانطية حيث عمل آبل من خلال هذه الإتيقا على إخضاع الممارسات الإنسانية بأبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية للمساءلة المحجاجة وتحكيمها للنقاش، وفق قواعد وأطر تداولية متعاقد عليها لضمان الاتفاق بين كل الأطراف المعنية.²

ولأن الفلسفة الكانطية كانت تتضمن العديد من مواطن الضعف والنقصان ارتأ آبل أن يكمل مواطن الضعف والنقصان فيها، وبمأ الفجوات التي تحويها، فيعوض تلك الأفكار الكانطية المتمركزة على الوعي والذات يدرج آبل نموذج جديد وهو نموذج التداولية المستندة أساسا إلى المناقشة بأدواتها (الحجاج / الإقناع) بغية البحث المشترك عن الحقيقة من قبل المشاركين في العملية التواصلية.

وفي هذا المقام نلمس تمدد في الفلسفة الكانطية فإذا كانت هذه الأخيرة منغلقة على نفسها، ومتوقفة حول مبدأ الأحادية والانفرادية "أنا أفكر" فإن التداولية الترسدنتالية التي نادى بها آبل لم تكتفي بهذا النوع من الانغلاق بل حولته إلى مبدأ جديد يسع أكثر فأكثر ويشمل أفراد تتفاعل وتتواصل فيما بينها، إنه مبدأ "نحن نفكر"، فنحن نفكر هنا ليست لإثبات وجودنا الذاتي الخاص، بل نحن نفكر لأننا في الأصل موجودين ونحاول

¹ - جان بول ريزغير، فلسفة القيم، ترجمة عادل العوا، دار عويدات للنشر والطباعة، لبنان، ط1، 2001، ص 94.

² - علي عبود المحمداوي وآخرون، مدرسة فرانك فورت النقدية، ص 259.

أن نثبت وجودنا داخل جماعة التواصل، ولن يكون هذا الإثبات حقيقيا إلا إذا تفاعلت كل ذات مع الذات الأخرى وذلك من خلال الحوار والمناقشة والتعبير عن الرأي بالحجة والبرهان، فأنا لن أثبت وجودي داخل الجماعة إلا إذا قدمت رأيا مبررا بالحجج والأدلة، فكل محاولة لفهم الآخر تضل محاولة تداولية (الاشترك،التخاطب، التعاون التحوار و الاختلاف في الرأي والنقاش)¹، وانطلاقا من هذا فقد تم تأويل القانون الأخلاقي الكانطي على ضوء الحوار والمناقشة الحجاجية التي تعتمد أساسا على اللغة كأساس أولي لمشروعية القاعدة الأخلاقية، حيث لا يمكن التأكد من صحة وصدق المعيار الأخلاقي، إلا إذا اتفق الأشخاص المشاركون في الحوار على صدقه.²

ثانيا: أشكال التواصل عند آبل.

لأن الحقيقة ليست في يد شخص واحد بل نحصلها بعد الحوار والنقاش وطرح الآراء المختلفة والمتعددة وبالأخذ والرد يتسنى لجماعة التواصل الوصول إلى تفاهم بنذاتي يرضي الجميع بل وتقتنع به كل الأطراف، وقد ميز آبل بين نوعين أو شكلين من أشكال التواصل.

1- التواصل المثالي (communication ideale) ويشترط فيه أن يكون مناسباً لجميع الأطراف وكأن التوافق هنا توافق عقلي آمن به كل طرف في المناقشة.

2- التواصل الواقعي (communication relle) وهو تواصل ناقص مشوه بعوائق يهدف إلى تحصيل الإجماع أو حتى الاتفاق المرضي بين المتحاورين.³

وهنا يدرك آبل تماما أن الفرق بين الشروط المثالية لتكوين توافق عقلاي والشروط الواقعية التي تتحكم بالفعل في مجرى الحوارات داخل جماعات محددة اجتماعيا وتاريخيا، ذلك أنه يعتمد على أخلاقيات

¹ - نفسه ، ص 265.

² - عبد القادر بليمان، دراسات فلسفية في الأخلاق والسياسة، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، ط1، 2012، ص 109.

³ - علي عبود المحمداوي وآخرون، مدرسة فرانك فورت النقدية، ص 265.

التواصل تتضمن على رغم ما قيل واجبا أخلاقيا يحفزنا على بذل أكبر ما في وسعنا لتقييم حجم الفرق بين جماعة مثالية والجماعة الواقعية للتواصل أو التواصل المثالي والتواصل الواقعي.

ثالثا: تأسيس التداولية الترسدنتالية.

تعود أخلاقيات المناقشة إلى ما يسميه آبل بإجرائية ترسدنتالية التي تضمن شروط مناقشة أطروحات ومبادئ عملية في المجال الأخلاقي والسياسي بحثا عن امتحان مشروعيتها ومعقوليتها وصلاحياتها.¹ ويوضح آبل ذلك بقوله: «لا بدبرأي، من تأسيس عقلائي فمائي تداولي ترسدنتالي، لا يستند فقط إلى موارد العالم المعيش التي وضعها تحديدا لموضع تساءل، ولكنه مستند أيضا إلى افتراضات الحاجة التي تستعين بها المساءلة العقلية والتي لهذا السبب لم يعد يعترض عليها عقلايا».²

فبفضل هذه الأخلاقيات ذات الطبيعة الترسدنتالية، حسب آبل هي متعالية يتسنى لنا إصلاح المسار الأخلاقي والانحرافات التي بات يشهدها المجتمع الغربي وليس بواسطة الحق، ذلك أن آبل يعتقد أن الحق في حد ذاته يجب أن يبرر بواسطة إتيقا النقاش باعتباره عنصرا مكمل، وملحق بالمبدأ الأخلاقي، وتعبير آخر يجب أن تضفي إتيقا المناقشة الشرعية على السلطة و الحق فهذا الأخير يجب أن يبرر أخلاقيا من قبل إتيقا المناقشة للأخلاق الأولوية وهي متضمنة في كل فعل وأن الحق في حد ذاته يجب أن يكون تابعا للأخلاق.³ وهذا الطرح تجاوز من خلاله آبل مقاربة هابرماس الذي دعى إلى نوع من التكامل بين السياسة والأخلاق مع عدم إعطاء الأولوية لواحدة على حساب الأخرى، ومن هنا نجد أن آبل قد يميز في إتيقا المناقشة بين جانبين الجانب (A) الذي يمكن الجانب النظري، والجانب (B) الذي يشمل الجانب التطبيقي أو الأبعاد الواقعية للتصورات النظرية.⁴

¹ - أبو النور حمدي أبو النور حسن، يورغنهابرماس: الأخلاق والتواصل، ص 259.

² - كارل أتو آبل، التفكير مع هابرماس ضد هابرماس، ص 51.

³ - محمد بوحجلة، الحوار الفلسفي بين يورغنهابرماس و كارل أتو آبل حول تطبيق إتيقا النقاش، مجلة الحوار الثقافي، مخبر حوار الحضارات، عدد

9، 2016، ص 82.

⁴ - نفسه، الصفحة نفسها.

وقد انطلق آبل في عرضه لمقارنته الخاصة بالتداولية الترسدنتالية كمنظير التداولية الصورية التي طالما دافع عنها هابرماس، من طرحه لسؤال يفتح به هذه الأطروحة الفلسفية والتي تتمثل في: هل يتوجب عليها - يقصد هنا المناقشة الفلسفية - مثلاً إذا أرادت الحديث عن تأمل نسبي للأشياء أن نلجأ بالموازاة مع ذلك إلى استدعاء فرضيات جديدة، وبمعنى آخر فرضيات التفاهم المتبادل ليست تاريخية جائزة (كما كان ينادي بها هابرماس) لكنها شاملة بشكل غير قابل للنقض؟¹

يبين آبل في كتابه الذي يتسم بعنوان "التفكير مع هابرماس ضد هابرماس" أن أغلب الفلاسفة يتبنون موقف هابرماس لأهم يرون فيه موقفاً وسطاً مقبولاً وكافياً للقيام بالمناقشة الفلسفية، إذ يعد هذا الموقف في نظرهم بمثابة المحصلة لمبدأ القابلية للخطأ عند بيرس^{*} (ChS, Pierce 1914-1839) وكذلك بوبر كارل (Karl Popper, 1994-1902) وكذلك الأمر بالنسبة للفلسفة التأويلية وأيضاً عند فيتجنشتين، وهذا نتيجة إيمانهم بحسب آبل "أنه لو تحتم وضع كل شيء دفعة واحدة أو مباشرة موضع الشك، فإنه لن يكون في إمكاننا البدء من الشك الملموس أو من صياغة الأسئلة"². ويشير آبل في هذا السياق أن إيمان هؤلاء بتلك الرؤية المحدودة أو حبيسة الواقع هو نتيجة لتكون عقولهم في مدرسة بيرس وفيتجنشتين - ويقصد هنا فيتجنشتين الأول -.

وتتجاوز لهذا الطرح الضيق ارتأ آبل أن يقيم تداولية جديدة تتجاوز الأطر التاريخية الجائزة، وليس هناك من بديل أفضل من التداولية الترسدنتالية، وإن كان في نظره أن هذا التأسيسية البديلة سوف تلقى صعوبة كبيرة في الفهم إن لم تقل بالرفض سبب اعتقاد هؤلاء الرافضين له "أنه في ذلك بداية تراجع سواء تعلق الأمر

¹ - كارل أتو آبل، التفكير مع هابرماس ضد هابرماس، ص 26.

^{*} - بيرستشارلس (ChS, Pierce 1914-1839): فيلسوف أمريكي من بين مؤسسي النزعة البراغماتية من خلال مقولته المشهورة "إننا فكرتنا عن أي شيء هي فكرتنا عن آثاره المحسوسة" ويعود له الفضل في ابتكار مصطلح البرغماتية.

² - نفسه، ص 27.

بمبدأ قابلية الخطأ أو بالمفاهيم التي أصبحت واضحة بفضل تداولية اللغة، وتاريخ التأويلية سواء أن ذلك بعين حديثة ما أم تاريخية ما، أم جواز لكل ما يتعلق بفهم مسبق وبتفاهق مرحلي في شكل تفاهم متبادل".¹

إذن فأخلاقيات المناقشة التي ينادي بها آبل هي ذات طابع كلي ترسدنتالي، فهي طريقة ومنهج يتأسس عليه الطرح الأخلاقي، وذلك حسب شروط تضمن الكلية والموضوعية والاتفاق بين المتحاجين، ولكي نتبين حقوق الحاجة ينبغي على التأسيس النهائي التداولي الترسدنتالي أن يستند حسب آبل إلى "افتراضات أخلاقية حول عقلانية المناقشة التواصلية... ومن ثمة الاعتراف بصلاحيّة المعايير الأخلاقية المتعلقة بوحدة تواصلية مثلى لامتناهية ولا ينتمي إلى هذه المعايير الأساسية المساواة في الحق لكل الشركاء الممكن تصورهم في الحاجة فقط، ينتمي إليها أيضا الواجب الذي هو واجبه المتساوي بينهم جميعا من الناحية المبدئية واجب لمسؤولية مشتركة في حل المشاكل القابلة لأي نقاش فكل سؤال يمر عبر الإسهام في المناقشة ليشهد بالقبول بهذا الالتزام باهتمامات شتى بالمعنى التداولي الترسدنتالي".²

وما يتضح لنا من خلال ذلك أن التداولية الترسدنتالية التي يسعى آبل للدفاع عنها فما تحمل في مضمونها مجموعة من الشروط التي تلزم المشاركين في الحاجة أو النقاش احترامها بهدف تحقيق الإجماع بينهم أو على الأقل تحقيق الاتفاق القائم على الرضى بين الأطراف المتحاورة، حيث تفهم الفاعلية التواصلية هنا ضمن متبادل تفاعلي بنذاتي يهدف إلى تحقيق التفاهم والقبول بين المشاركين، وهم يتعاملون عن طريق الحاجة أو البرهان، وهذا الأخير يفترض مسبقا الحياد ومسؤولية المتخاطبين ومعقولية الخطاب وخلافا لها برماس نجد آبل يتبنى موقفا تداوليا من منظور متعالي، إذ تشكل الافتراضات القبلية بالنسبة له شروط فعلية لإقامة

1- نفسه ، ص 52.

2- كارل أتو آبل، التفكير مع ها برماس ضد ها برماس، ص 52

الحجة وتندرج الأفعال اللغوية ولعبها المختلفة في هذا السياق، بالبحث عن إقامة البرهان وإقرار صلاحية ما ندعيه ويتم استخلاصها بفضل تحليل تأملي ذي طبيعة تداولية متعالية.¹

وتصر تداولية آبل على أن الذات المكتفية والمنطوية على ذاتها غير قارة على مواجهة الرهان الأخلاقي والمسائل الأخلاقية التي تتجاوز شخصية وحدود العلاقات القريبة في الزمان والمكان والتي تتجاوز معنى المسؤولية الفردية بل وحدود أخلاق المناقشة نحوى مفهوم أخلاق المسؤولية الكونية أو العامة متجاوزة بذلك الحدود الزمانية والمكانية، بل ومختلف الفروق فهي مسؤولية شاملة لكل كائن عاقل على وجه الأرض.²

إن أخلاقية المسؤولية التي يطمح إليها آبل تهدف إلى إخضاع كل فرد في جماعة تواصلية يتفاعل مع الأطراف الأخرى حتى لا ينكب على نفسه، "فالرهان القائم حول دعاوي الفهم البنذاتي هو رهان إتيقي يتعلق بالاعتراف المتبادل فيما بين المشاركين في التفاعل بطريقة تجعل معنى الممارسة التواصلية يتحدد وفق افتراض محوره المسؤولية"³، وفي إطار هذه التداولية الترسدنتالية نجد أن مفهوم المناقشة الحجاجية يمثل المخرج الوحيد الذي يمكن أن تركز إليه المناقشة، وأي بنية عقلية منطقية يمكنها الركن إلى البرهان العقلي والمنطقي بغية تفعيل وتوطيد العلاقات الاجتماعية التي تجمع الأفراد فيما بينهم حيث يقول آبل: «والحقيقة أن العقلانية الحجاجية تسعى إلى أن يتبع المشاركون قواعد في المقال التواصلية قواعد تسمح لهم حتى بالتوصل إلى توافق حول التقييم يمكنه من إقناع الجميع بالنتائج المستوحاة»⁴.

وفي إطار سعي آبل لتأسيس التداولية الترسدنتالية فإننا نجد أنه يرفض بصريح العبارة رد جميع الافتراضات المؤسسة للنقاش أو بناءها على أساس موارد العالم المعيش التي اعتمدها هابرماس في تأسيسه

¹ - حسن مصدق، بورغنبرماس ومدرسة فرانك فورت النقدية، ص 150.

² - علي عبود المحمداوي وآخرون، مدرسة فرانك فورت النقدية، ص 267.

³ - جان مارك فيري، فلسفة التواصل، ص 67.

⁴ - كارل أتو آبل، التفكير مع هابرماس ضد هابرماس، ص 51-50.

للتداولية الصورية "الشكلية" وفي تفسيره للعقلنة الكامنة في الدعاوي الحجاجية، إذ يرى آبل في مقابل ذلك ضرورة بناء هذه الافتراضات على أسس عقلية ترسدتتالية مصدرها التفكير المتعالي، فهذا الأخير هو مصدر الشروط القبلية للتواصل ويصرح بقوله: "فرضيات للتفاهم المتبادل ليست تاريخية جائرة لكنها شاملة بشكل غير قابل للنقض بحيث تؤسس لإمكانية قيام الشك ولحدود الشك وفي الوقت ذاته يكون التأسيس الفلسفي النهائي لمزاعم الصلاحية، وأخيرا فرضيات تتجاوز من حيث المبدأ لموارد النسبوية لأشكال الحياة التاريخية الجائرة، وهي بهذا المعنى تكون ترسدتتالية"¹. ويجعل هذا القول أن التفكير المتعالي الذي يمدنا بالشروط القبلية للتواصل هو وحده الكفيل والقادر على إعطاء الأخلاق أساسا نهائيا غير قابل للطعن، عكس ما كان ينادي به هابرماس بالرجوع إلى موارد العالم المعيش التي تتميز بالنسبة والتغير.

فالتداولية الترسدتتالية تتميز عن كل محاولة بناء القواعد التداولية الكونية على شروط تجريبية مادية ملموسة تنطلق من كفاءة الأفراد التواصلية الملموسة ففي عكس اتجاه آبل يذهب هابرماس لمحاولة بناء أسس مادية تجريبية لافتراضات معيارية تقوم على مسلمات عملية، وبالاعتماد على الكفاءة اللغوية التي اكتسبها المتكلمون في الواقع الاجتماعي "التنشئة الاجتماعية". مخلف أطوارها وأبعادها وعبر التاريخ برمته في حين يبقى آبل رغبته في بناء افتراضات تداولية².

فالشروط التداولية الترسدتتالية ضرورية ولا يمكن تجاوزها في حين نجد أن في إمكان هابرماس وباللجوء إلى تحليل العالم المعيش يمكنه توضيح الشروط الملموسة لإرساء إتيقا حديثة للمناقشة، ولكن حتى تتمكن من إرساء المبدأ الشكلي والإجرائي لإتيقا المناقشة ينبغيتوافر تأسيس نهائي تداولي ترسدتتالي لا يستجيب فحسب لموارد العالم المعيش التي وضعت موضع تساؤل من قبل الأنوار³.

¹ - كارل أتو آبل، التفكير مع هابرماس ضد هابرماس ، ص 26.

² - حسن مصدق، بورغنهابرماس ومدرسة فرانك فورت النقدية، ص 157.

³ - جان مارك فيري، فلسفة التواصل، ص 71.

لقد ظل آبل مرتبطاً بخطاب الترسدنتالي لانهائي لأنه في نظره السبيل الوحيد لتأسيس إتيقا كونية ترسدنتالية، وهذا يتوافق مع الهدف الذي يسعى آبل منذ البداية إلى تأسيسه وهو مبدأ الكونية الذي يشمل جميع البشر على اختلافهم وأجناسهم، فهو يتأسس على العقل لا غير، هذا الأخير الذي من شأنه أن يضمن الإجماع بين الناس لأنه القاسم المشترك بينهم كما أشار من قبل ديكرت "العقل أعدل قسمة بين الناس"، فهذا الأساس الترسدنتالي حسب آبل غير قابل للنقد ولا للتجاوز، فهو جملة الافتراضات الضمنية المعيارية القبلية الملازمة لأفعال اللغة التي تستند إليها الحجاج من حيث هو اتفاق بين المتحاجين.

إذ يسعى في المحاجة إلى استدعاء فرضيات جديدة بشكل متزامن مع ذلك، أي افتراضات متبادلة وليس افتراضات تاريخية عارضة مع أنها شمولية دون أدنى جدال والتي وبما أنها تؤسس إمكانية الشك وتعمل في الوقت ذاته على تكوين التأسيس الفلسفي النهائي لمزاعم الصلاحية، فإنها متجاوزة مبدئياً لمصادر النسبية لأشكال الحياة السوسيو-ثقافية التي ينظر إليها بهذا المعنى على أنها ترسدنتالية¹، ومعنى ذلك أن العقل الذي يريد آبل أن يؤسس له تأسيساً نهائياً هو العقل التواصلية الذي طالما دافع عنه هابرماس وتجلى بصورة واضحة في كتابه "نظرية الفعل التواصلية" غير أن تأكيد هابرماس على ضرورة تأسيس هذا العقل بناء على موارد العالم المعيش جعل آبل يتساءل حول "ما المعنى الذي يمكن أن تأخذه هذه التميزات إذ كان مبدأ المناقشة سيرجع في نهاية الأمر إلى افتراض مزعوم جائر تاريخياً للنشاط التواصلية في العالم المعيش افتراض ينبغي التحقق منه باستمرار عبر اختبارات موسعة، فإذا كان الأمر خلاف ذلك جعلنا هذه التميزات على محمل الجلد معترفين لها بمعنى الاختلاف الترسدنتالي"².

¹ - جان مارك فيري، فلسفة التواصل، ص 69.

² - كارل أتو آبل، التفكير مع هابرماس ضد هابرماس، ص ص 69-70.

إذ يبدو أن اعتراض آبل على هابرماس بسبب رد الأخير تأسيسية لفرضيات التفاهم إلى موارد العالم المعيش أسسها على فرضيات العلوم الإنسانية بفروعها، فهذه الأخيرة نسبية معرضة للنقد مستقبلا ولهذا السبب بالذات يرفض آبل هذا النوع من التأسيس لأنه ذا طابع نسبي.

وبناء على ما سبق ذكره والتطرق إليه يتضح لنا هنا أن كارل أتو آبل بين أن أخلاقيات المناقشة تمتاز بمستويين؛ المستوى الأول يتعلق بالجانب النظري (الفكري والفلسفي) الذي يشمل تأسيس الافتراضات النظرية المتعالية لعلم التداولي اللغوي الذي ينظم النقاش ويفعله، أما المستوى الثاني فيتعلق أساسا برسم شروط تطبيقية ملموسة بغية الوصول إلى تحقيق التوافق والتفاهم تجتمع بمقتضاه جميع الأفكار والإدعاءات المختلفة للتعليل والتبرير¹.

وفي سياق متصل، وفي خطوة مكتملة يستغرب آبل كيف أن هابرماس نفسه لم يفهم من الهيكلة الأساسية للعقلنة التواصلية الحجاجية بماهي نقطة انخراط بالنسبة لأي تأسيس نهائي للعقلمؤكدا أن ماهو جلي وواضح من الإبهام في إستراتيجية هابرماس في مبدأ المناقشة والذي يقصد به تلك الافتراضات الأربعة التي يقوم عليها أي خطاب ويررها المتحاورون أثناء كل مناقشة في تواصلهم البندي وتبين ذلك في قوله: «لا يستخدم هذا الاكتشاف استخداما مناسبيا وذلك خوفا كما هو جلي من فقدان الاتصال بالممارسة في العالم المعيش بماهو القاعدة المادية للفلسفة يحاول وبشكل أساسي أن يعيد إلى موارد التواصل الخاصة بالعالم المعيش ليس فحسب بناء المعنى القصدي (هنا سأتبعه) لكن أيضا تبرير الصلاحية»².

إذن إن كل حوار أو مناقشة يقوم على أساس الاحترام والالتزام بأخلاقيات المناقشة أو الحوار القائمة على البرهان والحجة الأقوى باستخدام آلية اللغة، وذلك بغية تحقيق التوافق والتفاهم بين الأطراف المتحاوره ذلك أن آبل يستند إلى تصور هيرمونطيقيتتجاوز هيرمونطيقاغدامير، عنوانها (لنتفهم أفضل) ثم يبلورها

¹ - أبو النور حمدي أبو النور حسن، يورغنهابرماس الأخلاق والتواصل، ص 268.

² - كارل أتو آبل، التفكير مع هابرماس ضد هابرماس، ص 75.

داخل تصور إتيقي تواصلني منطوقه "إن فهمنا أفضل يؤدي بالضرورة إلى تواصل أفضل ومن ثمة معرفة أفضل ببعضنا البعض"¹ ولا يمكن الحديث عن التفاهم في غياب الاعتراف من قبل كل المشاركين باحترامهم والتزامهم بشروط الصدق والمصادقية والدقة والمعقولية، وبهذا يكتسي الإقناع -المحاجة- أهمية بالغة في فلسفة آبل الترسدنتالية، وهو ما حوله له قوة وسلطة، أي سلطة الخطاب، فالإقناع لا يتحقق إلا عند التسليم بمقتضاه مقالا أو ممارسة² وذلك من خلال التأمل في الخطابات اللغوية، فالتأمل هنا يهدف إبراز صدقية الافتراضات أو الشروط التداولية الترسدنتالية المنتظمة في اللغة (في الخطابات) والتي تشكل محورا أساسيا في الأخلاقية الممكنة - صلاحية المحاجة- وللتأكد على ضرورة تلك الشروط أو الافتراضات (الصدق، الدقة، المسؤولية، المعقولية والمصادقية³) حيث يقول آبل في هذا الصدد « ففي وسع أي أحد أن يشارك في نقاش فلسفي إنكار وجودها أو على العكس أن يسلم بها، لكن يجد نفسه في كلتا الحالتين مكرها على اللجوء إلى البرهان لتدعيم افتراضاته ذاتها وهو بذلك تقر ضمنا بصلاحية شروط التواصل هاته»⁴.

وما نستشفه من هذا القول هو إصرار آبل في تأكيده على ضرورة الالتزام في أي خطاب بقوة البرهان والحجة باعتبارهما مطلبين أساسيين ضرورتين لتحقيق الحالة المثالية للكلام، فالمتكلم داخل إطار المناقشة يجب أن يكون موقفا قائما على الحجة سواء بالسلب أو الإيجاب، فهو إذا دافع عن قضية معينة أو نبني موقف معين مضطرا للتعبير عنها بالحجة والبرهان، أما إذا رفضها فالأمر سيان لا يختلف فالمتكلم أيضا مطالب بتقديم البيئة على ما ادعى أي سبب الرفض وذلك تجنبنا من الوقوع في التناقض الانحازي، فهذا الأخير يعني انسحاب الإنسان من فئة الكائنات العاقلة القادرة على الدخول في المناقشة الحجاجية والتواصل الإنساني بصفة عامة.

¹ - جان مارك فيري، فلسفة التواصل، ص 56.

² - حسن مصدق، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، ص 155.

³ - حسن مصدق، النظرية النقدية لمدرسة فرانك فورت، ص 155.

⁴ - علي عبود المحمداوي، مدرسة فرانك فورت النقدية، ص 272.

إذن ففي كلتا الحالتين يكون المتكلم مجبر على استعمال شروط التداول اللغوي أو افتراضات تداولية (الدقة، المصدقية، الصدق، المعقولية) في الرفض أو القبول، وقد بين آبل أن كل مناظرة أو حوار أيا كانت تنطوي على شروط تعاملية أو تداولية كلية مختلفة منها على سبيل المثال أن أعامل أنا محاورى أنه مساو لي في حق التذليل وذلك وفق مبدأ الندية، وأن أفترض أنه يصدقني القول كما أصدق، وأن يتعاون كلنا على الظفر بالصوابوهنا يلزم أن يقع المنازع في أي شرط من هذه الشروط التعاملية في مناقضة نفسه، ويعتبر مبدأ التعميم من هذه الشروط التداولية الملزمة مثل القول: "أطلب أن يقع الإجماع على عدم صحة الإجماع".¹

ومواصلة في دفاعه عن فكرة التأسيس النهائي للعقل أو عرض أطروحة التداولية الترسدنتالية يدخل آبل في مناظرة شيقة مع أنصار النزعة العقلانية النقدية التي يتزعمها كارل بوير وكذلك تلميذه هانز ألبرتوفي المبحث الموالي سنحاول توضيح تلك المناظرة القائمة بين آبل وأنصار النزعة النقدية .

1 - طه عبد الرحمن، تعددية القيم: ما مداها؟ وما محدوديتها؟، ص 27.

المبحث الثالث: موقف كارل أتو آبل من العقلانية النقدية.

أولاً: المناقشة من منظور العقلانية النقدية

كنا قد سبق وتطرقنا عن فكرة التأسيس الفلسفي النهائي للعقل التواصلي بالنسبة لآبل، وعن فكرة التأسيس النهائي الترسدنتالي وموقفه، هذا ما جعله ينتقد كل من يربط الحقيقة بالواقع بأبعاده المختلفة سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو ثقافية وغيرها، وفكرة التأسيس ذاتها جعلت آبل يدخل في نقاش مع أنصار العقلانية النقدية وفي مقدمتهم كارل بوبر.

كارل بوبر، هانز ألبرت وغيرهم من أنصار النزعة الوضعية وزعماء العقلانية النقدية، هذه النزعة التي ألفت بفكرة التأسيس الفلسفي النهائي وجعلتها من بقايا الفكر الميتافيزيقي، فتخلت هذه النزعة عن فكرة التأسيس النهائي وعوضتها بمبدأ جديد وهو مبدأ النقد الدائم، وأول مبدأ عارضته النزعة النقدية هو مبدأ العلية الكافية، والذي بمقتضاه يرد لكل تصور أو حقيقة أو شيء إلى أصول يقينية ثابتة وواضحة غير قابلة بدورها للشك وكل التصورات الأخرى تنبثق منها.

فهذا المبدأ غير قادر على الإمساك بالواقع الفعلي، فعلى سبيل المثال "مبدأ الكوجيتوا" لصاحبه ديكارت مؤسس الفلسفة العقلية إذ اعتبر هذا المبدأ فكرة "أنا أفكر إذا أنا موجود" بمثابة القاعدة العامة واليقينية بل والمبدأ الأساس لكل فلسفة، تقوم عليه لا لشيء سوى لأنه ناتج عن حدس عقلي مباشر، وهذا الطابع الحدسي هو الضامن ليقينية، وهذا ما يجعله ضامناً للمعارف المؤسسة عليه، ولأن هانز ألبرت من زعماء نزعة النقد الدائم فإنه ثار كبقية زملائه على هذا اليقين الزائف، والدوغماتية للقناعات المعرفية والحقائق، فكل شيء قابل للنقد، وبالتالي فكل الحقائق تحتمل الخطأ أو ما يسمى بمبدأ القابلية للخطأ (rilibilisme) أين شكلت هذه النزعة حركة انتقالية من وعي اليقين إلى وعي اللابيقين، فكل الحقائق الثابتة اليوم قابلة للتغيير في المستقبل القريب أو البعيد.

في هذا الصدد يقول كارل بوبر: « إن هدف العلم هو أن يقترب أكثر فأكثر من الصدق والعلم يستطيع بفعل ذلك عن طريق منهج العقل النقدي ... ومن ثمة فإن نمو المعرفة يتقدم ابتداءً من حذف الخطأ¹ إذ لا بد من الفصل والتميز كما يقال التميز بين طلب اليقين الذي يوقع صاحبه في الوثوقية العمياء التي تجعله يجهل الحقائق الكثيرة، وطلب الحقيقة التي تجعله أكثر قابلية للتقصي عن الحقائق والسعي إليها، فالحقيقة لا اليقين الدوغماتي هي السبيل نحوي تحقيق تقدم العلوم وتطورها.

ونشير أن إيمان أنصار النزعة النقدية بمبدأ النقد الدائم لا يعني أنهم يرفضون الحاجة بل على العكس من ذلك فهم يتبنونها ويدخلون فيها ويمارسونها بهدف التدليل والبرهنة على مواقفهم، فهم يدخلون في المناقشة (الحاجة) لكن على وعي منهم أن كل الحلول والمعارف التي تصل إليها وتحققها في الحاجة غير يقينية وقابلة بدورها للخطأ، فلا وجود على الإطلاق لمعارف غير قابلة للمراجعة، وما يحيل هنا أن كل الحقائق نسبية متغيرة وغير ثابتة.

إذن ما نصل إليه بناء على هذه النزعة وما تدعوا إليه، أنها انتقلت من نموذج اليقين الذي ساد طويلاً في العصر الحديث، أو نقول أنه كان السمة العامة للفلسفة الحديثة إلى نموذج جديد وهو اللايقين الذي يسعى إلى قلب المطلق إلى نسبي، الثابت إلى متغير، وعند حديثنا عن أطروحة اللايقين فإنها حسبهم غير مقتصرة فقط على الحقائق والمعارف العلمية بل تشمل أيضاً الشؤون الاجتماعية والأخلاقية والسياسية والثقافية.

فالقاعدة العامة التي تأسست عليها النزعة النقدية هي استحالة منح تأسيس نهائي وعقلاني للمسائل الأخلاقية بل لا بد من إخضاعها للاختيار النقدي بصفة متجددة ودائمة لما هو متاح من بدائل مثل ما هو جاري في النظريات العلمية²، فمثلاً نظرية أينشتاين في الفيزياء جاءت كبديل على نظرية نيوتن، هذه الأخيرة التي اعتقد في صحتها على ما يزيد بقرون حتى أثبت خطئها.

¹ - كارل بوبر، منطق الكشف العلمي، ترجمة ماهر عبد القادر محمد، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، د.ت، ص 42.

² - جميلة حنفي، يورغنهارماس من الحداثة إلى المعقولة التواصلية، ص 196.

ثانيا: آبل ناقدا للعقلانية النقدية

مما سبق توضيحه، يتضح لنا أن النزعة النقدية تضرب بأطروحة آبل في الصميم، لأنها ترفض فكرة التأسيس الفلسفي النهائي التي طالما دافع عنها مما جعلها يحاول إخضاع هذا المبدأ إلى امتحان ميتانقدي (métacritique) أي تطبيق العقلانية النقدية على نفسها وانطلق في ذلك بقوله «في أفق التداولية الترسدنتالية هذا من البديهي أن تتساءل عن الكيفية التي تباشر من خلالها التحقق التجريبي المزمع لهذه الافتراضات الموضحة في مبدأ مناقشتنا لبعض المفاهيم مثل مفهوم التحقق (مرورا بمحاولة التقليد)، وحتى في حال قلدت هذه الافتراضات فإنها بالموازاة مع ذلك ينبغي أن تثبت بوصفها افتراضات تداولية ترسدنتالية للتقليد».¹

وعند الحديث عن افتراضات المحاجة التي يستند إليها الحجاج من حيث هو اتفاق بين المتحاورين وهذه الافتراضات* تعني الشروط الشكلية التي لا يمكن التفكير في ممارسة النقد بدونها، بل إن أثرها سيتجاوز في نهاية المطاف الافتراضات المتعلقة بمظاهر العالم والمزاعم المميزة للصلاحة.

ثالثا: الافتراضات المحاجة في مستوياتها الثلاث

تتموضع هذه الافتراضات على ثلاث مستويات عرض لها جان مارك فيري في:

¹ - كارل أتو آبل، التفكير مع هابرماس ضد هابرماس، ص 32.

* - في كل تصور لساني ينطلق الشركاء من معطيات وافتراضات معترف بها ومتفق عليها بينهم، تشكل هذه الافتراضات الخلفية التواصلية الضرورية لتحقيق النجاح في عملية التواصل وحمي محتواة ضمن السياقات التركيبية العامة، للتوسع أنظر: التداوليات علم استعمال اللغة، إعداد وتقديم حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث، لبنان، ط01، 2010، ص 43.

01- المستوى الانطولوجي: ويتمحور هذا المستوى في سياق المنطوقات في بعدها الموضوعي (الواقع) الاجتماعي والذاتي.

02- المستوى الاكسيولوجي (القيمي): وهو أكثر الافتراضات شمولاً والتي يمكن للمتأمل أن يبلغها من خلال ممارسة التجربة "التناقضات التداولية".

وهو يسمح بتأسيس مبدأ القابلية للخطأ ذاته عبر تحديده للشروط الشكلية لأية ممارسة

03- مستوى الافتراضات الترسدنتالية: ممكنة لما يسميه البوبريون (popperiens) نسبة إلى كارل بوبر¹ وهذا الافتراض الأخير بلوره آبل وتجلى بوضوح في رده على أنصار النزعة النقدية، أما المستويين الأولين فقد بلورهما هابرماس.

ففي مستوى الافتراضات الترسدنتالية (التداولية) نجد أن آبل قد دخل في نقاش مع ألبرت وحوار من خلال هذه المناقشة أن يبين مبدأ النقد الدائم ذاته لا يتعارض على الإطلاق مع مبدأ التأسيس النهائي، فإذا كان النقديون ينظرون إلى النقد على أنه سمة من سمات الفترة المعاصرة وخاصة من خصائص المجتمعات المنفتحة والمتطورة، إلا أن آبل أكد أن هذا المبدأ -النقد الدائم- لا يتعارض في أي وجه من الأوجه مع فكرة التأسيس الفلسفي النهائي مؤكداً أنه يتوجب على النقد يكتفي هو ذاته بالتأمل الترسدنتالي حتى يتمكن من فهم ما من شأنه أن يشكل إمكانية الخاصة، كالمعايير المتعلقة بالحاجة.

وكما سبقت الإشارة إليه أن آبل حاول أن يخضع مبدأ النقد الدائم على نفسه من خلال ما يسمى ميتا النقد (métacritique) وذلك بغية تحصيل الشروط التداولية الشكلية التي لولاها لما أمكن ممارسته النقد فحسب آبل فحتى النقد في حد ذاته بحاجة إلى شروط ومعايير محدودة حتى يتم تطبيقه، وهذه الشروط الترسدنتالية هي المسعى الذي يريد آبل تحقيقه، فهذه الشروط التداولية ذاتها لا يمكن تزويرها (أو تدليسها)

1- جان مارك فيري، فلسفة التواصل، ص 72.

دون أن يستعين هذا التزوير (التدليس) ذاته بالشروط المفصح عنها، وهي إجمالاً شروط تتمحور حول المحاجة¹.

فقد كان هدف آبل هو التأسيس الفلسفي النهائي أين تتجلى شروط إمكانية التزوير ومن هنا يتضح لنا أن مبدأ النقد الدائم في حد ذاته لا يتعارض على الإطلاق مع مبدأ التأسيس النهائي إذ أن مبدأ التزوير ذاته لا بد له من جملة من الشروط وهذا مبتغى التداولية الترسدنتالية، وعليه فإن آبل يدعم وجهة النظر القائلة بأن المنطوقات الترسدنتالية المتمحورة حول التأسيس النهائي غير قابلة للتزوير (التدليس) تجريبياً، لكن هل هي كذلك ترسدنتالية؟.

يحاول آبل أن يوضح مقاربتة هذه تجنبا للخلط أو لسوء الفهم لأنه لا يريد بتاتا الدفاع عن موقف العقلانية الكلاسيكية التي تؤمن بأن الحقيقة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالبداهة "عقلانية ديكرت"، فالبداهة ليست مطلباً لآبل، وليست من مبتغاه حل النزاع الكلاسيكي حول مصدر المعرفة عقلية كانت أم تجريبية، ذلك أن الوعي الذي لدينا مقتصر على الذات وحدها وبالتالي نعجز عن تبيان كيفية تحويل هذه البداهة المعرفية المتمركزة على الذات إلى صلاحية بنذاتية لقرارات مصاغة في منطوقات² قابل هنا يتجاوز ما يعرف بفلسفات الشعور (conscience) من ديكرت وحتى هوسرل، حيث تأسست الحقيقة في نهاية المطاف في هذه الفلسفات على الشعور بالبداهة.

فآبل حاول من خلال فلسفته الترسدنتالية تقديم البعد التداولي للغة بحيث تمنح الأولوية في هذا الإطار ليس إلى الذات كذات متمركزة حول نفسها ولا إلى الشعور الداخلي الذي مصدره البداهة ولكن إلى اللغة واللغة في بعدها التداولي التواصلي بين الذوات، حيث يسند إلى اللغة وظيفة التفكير حول شروط إمكان معرفة صالحة من وجهة نظر تداولية كما سبق وذكرنا، ومن هنا ودون أن يعود إلى الحديث عن استحالة

1- نفسه، ص 73.

2- جميلة حنيفي، يورغنهابرماس من الحداثة إلى المعقولة التواصلية، ص 196.

وجود تزوير تجريبي يمكن لآبل أن يطرح بموجبه تحفظا متعلقا بقابلية الخطأ لدى منطوقاتها لترسدتالية ذاتها، وذلك عبر تصوره لإمكانية قيام تزوير (تدليس) منهجي حتى ولو كان ذلك من الناحية المبدئية فقط¹، وخاصة أنه يجعل من الخضوع لتلك الافتراضات أمرا ضروريا وأكيدا مع الاعتراف على الأقل بالاختلاف الموجود بين وضع المنطوقات التجريبية (العلمية من جهة) والمنطوقات لترسدتالية من جهة أخرى ويتضح ذلك من خلال قوله: «قد يضطر حينئذ إلى افتراض حقيقة الافتراضات بطريقة ينبغي على الاختلاف الترسدنتالي بين الفرضيات القابلة للتحقق تجريبيا وبين المنطوقات القائمة على افتراض التحقق»².

رابعا: البدهة المعرفية في إطار التداولية الترسدنتالية.

فالبدهة المعرفية في إطار التداولية الترسدنتالية ترتبط باستعمال اللغة وما يلحقها من أفعال الذاتفالمعرفة واستعمال اللغة متلازمان مترابطان، وبدون هذا الترابط لا يمكن للفرد أن يفهم اللغة ولاكتساب سلوكيات قائمة نوضح ذلك بالمثال التالي:

في مقام تواصل معين يدور الحوار التالي بين الشريكين (أ) و (ب):

(أ). كيف حال زوجتك وأولادك؟

بافتراض أن الشريك (ب) متزوج وله أولاد

فيجيب الشريك (ب): إنها بخير والأولاد في عطلة شكرا.

فالتوافق القائم بين الشريكين إنما مرده إلى البدهة المعرفية القائمة على التجربة المشتركة ولكن إذا

كانت الحلقة التواصلية غير مشتركة، فإن الشريك (ب) يرفض السؤال أو يتجاهله، فيجيب بالملفوظات التالية:

1- لا أعرفك

2- لست متزوجا

¹ - جان مارك فيري، فلسفة التواصل، ص 74.

² - كارل أتو آبل، التفكير مع هابرماس ضد هابرماس، ص 32.

3- لقد طلقت زوجتي

وفي رأي التداولين أن هذه العملية التداولية ذات أهمية قصوى في عملية التواصل وخاصة في التعليميات (الديداكتيك)، فالطفل مثلا لا يمكنه تعلم معلومة جديدة ولا فهم لغة دون افتراض وجود أساس سابق يتم الانطلاق منه والبناء عليه.¹

وعلى ما سبق يتضح لنا أن العامل الأساسي والأكثر أهمية من أسباب حدوث حالات سوء الفهم المنطوية تحت التواصل السيئ إنما مردها إلى ضعف أساس الافتراضات المسبقة والتي تتمثل أساسا في الوفاق حول بداهة التجربة المشتركة بين المتخاطبين والضرورية لكل نجاح تواصل كلامي.

إذن فهناك علاقة وطيدة بين البداهة المعرفية الممكنة واللغة الترسدنتالية، فلا يمكن الحديث عن البداهة المعرفية في غنى عن خطاب لغوي، كما لا يمكن الحديث عن خطاب حجاجي لتأسيس افتراض البداهة المعرفية يطبقها المشاركون في الخطاب كميّار للحقيقة والسيرورة الحجاجية وذلك بغية تحقيق الإجماع بين أطراف المناقشة.

وبالتالي يجب تأسيس صلاحة المعرفة على البداهة الممكنة للوعي وعلى قواعد قبلية بنذاتية خاصة بالخطاب الحجاجي - معروفة من قبل كل أطراف المناقشة - وهنا نتحول في سياقه البداهة المعرفية كدليل ذاتي للصلاحة الموضوعية إلى صلاحة بنذاتية، وهنا يتجلى لنا كيف أن آبل ربط بين مفهوم الحاجة (l'argumentation) مفهوم الإجماع «ذلك أن الانخراط في محاجة حاجة يفضي بنا القبول ضمنا بمعيّار إتيقي مفاده أنه ينبغي إخضاع أي نزاع أو خلاف يقع بين الذوات المنطوية في نقاشنا إلى حجج محددة يكون هدفها الأساسي بلوغ الإجماع»². ومن هنا يصبح هذا المعيار مطلبا لا غنى عنه في قيام أي مناقشة

¹ - حافظ إسماعيل علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، ص 44.

² - كارل أتو آبل، التفكير مع هابرماس ضد هابرماس، ص 19.

ممكنة مع العلم أن الطابع الترسدنتالي لهذا المعيار غير أنه لا يخضع إلى متغيرات التجربة بمقدار ما يعمل على تكيفنا وفق تصوراته الخاصة - الطابع الترسدنتالي - .

وفي سياق متصل نجد أن هابرماس نفسه يجدد طبيعة الخلاف القائم بينه وبين كارل بوير والنزعة النقدية بصفة عامة بقوله « أعتقد أن ما يجعلني في مواجهة بوير وما يجعله هو أيضا في مواجهة آبل يخرج عن كونه مجرد خصومة عائلية فمجال البرهان هنا يتجاوز مسألة القابلية للخطأ¹ .

إذ يتمحور الخلاف الآخر بينهم والذي يتجاوز بحدوده مسألة القابلة للخطأ «بل تتعلق المسألة في صميمها عن من كان يدافع عن تصور قوي للعقلنة ومن كان يدافع عن تصور ضعيف لها، ففيما دافع هابرماس وصديقه آبل عن تصور فهم للعقلنة معطوفا على نموذج التبرير²، نجد أن ذاته قد انتصر للتصور الأداتي عن العقلنة، وهنا يشير هابرماس إلى استنتاجين أساسيين يتمثلان في:

1- إن كارل بوير ينتمي إلى النزعة الغير معرفية فيما يتعلق بالمسائل الأخلاقية فهو يرجع الأحكام الأخلاقية إلى تقدير من نمط قراري إرادي ذا طابع ذاتي، يتحدد وفق مواقفنا الأكسيولوجية، أو حسب ما يرى هابرماس يتعلق بتفسير إرادي (volontariste) وبالتالي فهو يتجاوز إمكانية وضع أي إجراء أو مبدأ مثل الكونية "الشمولية" الذي من شأنه أن يسمح بتبني إقرارات عقلانية محفزة لمعايير القيم، بل يترك اختيار القيم حسب هابرماس إلى ما يسميه ماكس فيبر بحرب "الآلهة والشياطين".

2- اتخاذ بوير موقف إيماني بهذا الإقرار لبيني موقف عقلاني بدل من الموقف الإيقاني هو في نهايته يتعلق بمسألة الإيمان أكثر من كونه موقفا مبررا بالحجج، ومنه يبدو العقل في تحليلاته المتأخرة وكأنه مجرد قيمة وسط قيم كثيرة أخرى³، ومنه يصبح هذا الموقف في حد ذاته مسألة غير عقلانية، وهنا يقول هابرماس: « لقد اعترف

¹ - يورغنهابرماس، إتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، ص 29.

² - نفسه، الصفحة نفسها.

³ - نفسه، ص 30.

بوبر سنة 1944 بأن اختيار العقلنة لا يمكن النظر إليه بما هو اختيار عقلائي، بل سينظر إليه لاحقا بما اختيار أخلاقي مثل (رفض العنف، القبول بفكرة أن الآخرين يملكون إمكانية نقد موافقي الحاملة والقبالة للخطأ).¹

وإذا كان العقل أعدل قسمة بين الناس، فهو القاسم المشترك بينهم على اختلاف مذاهبهم وإيديولوجياتهم وثقافتهم، فبالعقل وحده دون سواه يتوحد البشر، فمن خلاله يتفقون أو يختلفون، هذا المبدأ هو نقطة الانطلاقة في فلسفة آبل التواصلية، وذلك من خلال إتيقا ذات بعد تداولي ترسدنتالي.

بناء على هذه التداولية فإن كل محاولة لفهم الآخر هي محاولة تداولية تعتمد في أساسها على اللغة كواسطة لا غنى عنها في العملية التواصلية، ولكن المحور الأهم في هذه التداولية هو اعتماده على "الحاجة" كركيزة أساسية لا يقوم النقاش إلا بها.

إذ أن المناقشة البرهانية "الحجاجية" بحسب آبل ليست لعبة قوامها اللغة، يكون الانخراط فيها من عدمه سببان، بل إنما تعد عماد النشاط التواصلية. بماهي أساسية ذاتية وبنذاتية في الوقت ذاته، وهو ما ينطبق حصرا على أنواع النشاط التي كان قد حددها هابرماس كالنشاط المتعلق باستجلاء المعنى، أو ذلك الخاص بالبحث عن الحقيقة أو عن الانضباط أو عن الصدق، فهذه المتطلبات الأساسية للنشاط لابد أن تكون ترسدنتالية كما يرى آبل ولا تختزل إلى مجرد شروط سوسيو-ثقافية ذات وجود نسبي لا يمكن الاطمئنان إليها، يقصد بعث تأسيس فلسفي نهائي.²

فالتداولية الترسدنتالية حسب آبل تفترض وجود معيار أساسي مسبق يجب على المتحاورين احترامه أي أن كل المشاركين في العملية الحوارية (المناقشة) يكون على استعداد للمثول للمعايير المفروضة مسبقا والمستنبطة من البنية العقلية، والتقيد بها على اعتبار أن الجميع خاضع وملزم على احترامها والخضوع لها،

¹ - يورغن ها برماس، إتيقا المناقشة و مسألة الحقيقة، ص 28.

² - كارل أتو آبل، التفكير مع هابرماس ضد هابرماس، ص 19.

ما يعني أن آبل يقر بتقبله هذه المعايير وأسبقيتها، وهذا ما يضيف عليها الطابع الترسدنتالي، وهنا يتبين لنا أن ارتباط آبل بالميراث الكانطي ذا الطابع الترسدنتالي المثالي، فقد ظل آبل وفيًا لترسدنتالية كانط مقرا في الوقت نفسه بضرورة التمسك بهذا النوع من الخطاب - الترسدنتالية - فهذا الأخير هو وحده الكفيل بتحديد الكيفية النظامية وتوضيح الشروط لإمكان وصلاحة الاتفاقات، فالخطاب الترسدنتالي هو الذي يقر لنا الأسس النهائية لكل فلسفته نظرية أو عملية ولكل علم، ويلخص لنا جان مارك فيري هذه الإتيقا بقوله: « فهي تظهر لنا التناقضات التي قد يقع فيها كل من يرفض إتيقا المناقشة وقدرتها المتعلقة بالحجة الأقوى، كما يعمل على إيقاظ الخواطر على واقعة أن العقل الحجاجي لا يقبل أن يوضع على الرف بسهولة، ومن أن مبدأه يمثل العنصر العقلي الضروري لا يشكل حياتنا المختلفة».¹

وبالتالي يمكن قراءة الفعل التواصلي على أنه الكيفية التي تتم فيها معالجة الحقيقة عندما لا يمكن ان تتاح هذه الأخيرة من قبل سلطة عليا، ولذلك تتيح الفاعلية التواصلية تناول الحقيقة كصيورة لتبادل الحجج التي تتم حسب افتراض يتعلق باتفاق اجتماعي وهو افتراض موجود في بنية اللغة نفسها تلك هي أخلاق المناقشة.²

¹ - جان مارك فيري، فلسفة التواصل، ص 84.

² - شريفي أنيسة، فلسفة أخلاقيات الحوار عند هابرماس، ص 139.

الفصل الثالث:

هايرماس في فضاء كارل أوتو آبل

هابرماس في فضاء كارل أوتو آبل

بعد أن تم التطرق في الفصلين السابقين إلى إتيقا المناقشة (أخلاقيات المناقشة) ورأينا كيف تمحورت هذه إتيقا في صور تداولية، حيث تراوحت هذه الإتيقا بين الإتيقا التداولية الصورية (الشكلية) والتداولية الترسدنتالية.

فلقد بات الحديث عن إتيقا الحوار والمناقشة من الأمور الضرورية خاصة بعد تبدد الأخلاق وضياعها في غياهب التقنية، حيث أفرغت الذوات البشرية من كل معنى، فأصبحت جوفاء خاوية، وأصبحت الأخلاق تسير في خطى ثابتة نحو الورا، تحت تأثير الدعاية وأنماط السلوك المرتبطة بنظام الإنتاج الصناعي الرأسمالي، فأضفت طابع الجفاء والمادية والبرغماتية البحتة على السلوكيات الإنسانية، ملغية في المقابل تلك الصيغة التداولية والإنسانية الروحية التي تربط الأفراد فيما بينهم، وسنحاول في هذا الفصل البحث عن مواطن الاتفاق والاختلاف بين إتيقا المناقشة التي بلورها هابرماس والتي تنطوي تحت عنوان "التداولية الصورية" وإتيقا المناقشة التي بلورها كارل أوتو آبل والتي تأتي بدورها تحت عنوان "التداولية الترسدنتالية"، وقد أدرجنا فيه أهم النقاط التي أيد فيها آبل موقف زميله هابرماس، في حين جاء المبحث الثاني يوضح نقاط الاختلاف بينهما وإبراز مواطن النقد التي وجهها آبل لزميله أما المبحث الثالث فأدرجنا فيه مقاربة جديدة في تاريخ مدرسة فرنكفورتألا وهي أطروحة إتيقا الاعتراف كتجاوز لأطروحة إتيقا المناقشة.

المبحث الأول: كارل أوتو آبل مؤيدا لهابرماس

يعتبر كل من هابرماس وآبل من أهم ممثلي الفكر الفلسفي في النظرية النقدية في جيلها الثاني، وبرغم من تميز كل فيلسوف منهما عن الآخر في بعض المفاصل، فيما يتعلق بموضوع إتيقا المناقشة والتي سنتعرض إليها في المبحث التاليغير أن هذا الأمر عينه لا يفرض انفصال كل منها عن الآخر، بل على العكس من ذلك توجد العديد من النقاط التي يتفق حولها كل من هابرماس وقرينه آبل، بل إن هابرماس نفسه يعترف بدوره بفضل صديقه كارل أوتو آبل في توجيه عمله بقوله « إن صديقي كارل أوتو آبل كان له الدور الأكبر في توجيه عملي الخاص أكثر من أي زميل آخر »¹. وسنوضح هنا بعض النقاط التي أيد فيها آبل زميله هابرماس.

لقد أيد كارل أوتو آبل زميله هابرماس في أنه لا سبيل للخروج من الأزمة التي وقع فيها العقل الغربي الذي بات يتخبط في عوالم التقنية والأدائية، أو سيطرة ما يصطلح عليه بالعقل الأداتي الذي يتميز بسعيه نحو تحقيق المنافع والمصالح المادية، متجاوزا في مقابل ذلك كل ما له صلة بالأخلاق والروحانيات معتبرا إياها ضربا من ضروب الميتافيزيقا، إلا من خلال ما يسمى بالعقل التواصلي هذا العقل الذي يؤمن بوجود علاقات بنذاتية تداوتية، لا مجال فيه للانفرادية والانطوائية على الذات، بل الكل ينطوي ويخضع لعلاقات بنذاتية تربط الأفراد فيما بينهم و هذا الترابط والتفاعل بين الأفراد يحيل إلى وجود ضوابط وأخلاقيات للمناقشة والحوار، فهذه الأخيرة ليست مجرد عمليات عشوائية بقدر ماهو نشاط أخلاقي محكم بضوابط والتزامات يتقيد بها كل أطراف عملية التواصلية.

إيمان كل من هابرماس وآبل أنه لا مجال لتحقيق هذا العقل التواصلي إلا من خلال استعمال الخطاب العقلاني، والذي يتجلى بفضل انتقاهم من براديعم فلسفة التاريخ والوعي الذاتي إلى براديعم جديد هو نموذج التواصل كإحدى سمات الرأسمالية الحقيقية بمعناها الواسع والجوهري، ولذلك نجد أن كلاهما قد استعانا في

1- يورغنهابرماس، إتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، ص 32.

تحقيق مشروعيهما بما يعرف بالمنعرج اللغوي أو اللساني الذي بلوره مجموعة من فلاسفة اللغة أمثال (فيتجنشتاين وأوستن وسيرل وغيرهم) وقد اعتمد من هذا المنعرج على اللغة، باعتبارها آلية محورية ومهمة لتحقيق التواصل في صورته البنائية، فالبراديجم الذي يريده آبل وهابرماس كان تداوليا قوامه البرهان اللغوي والتفاعل الخطابي لمواجهة المستقبل المظلم المسدود، والانكباب على إرساء توطيد معاني البنائية أو دعوات التذاوت¹، وبفعل هذا الانتقال استطاعت الفلسفة التواصلية النقدية بفضل هذه التحرر من قيود الميتافيزيقا ومعرفة أخلاقيات جديدة تمثلت في أخلاقيات تداولية مختلفة عن الأخلاقيات الدينية والاقتصادية والسياسية، تعتمد هذه الأخلاق على مبدأ المحاجة وبهذا يكون كل من هابرماس وآبل ورثة المنعرج اللغوي وهذا ما عبر عنه آبل نفسه بقوله: «فإنه يمكنني القول أننا أنا وهابرماس على اتفاق هنا، وحول هذه النقطة بالضبط يلتقي موقف التداولية الشكلية وموقف التداولية الترسدنتالية وبهذا نكون نحن ورثة التغيير التداولي الألسني التأويلي في الفلسفة المعاصرة»².

وفي سياق الحديث عن الخطاب التداولي فإن كل من هابرماس وآبل يشيران إلى ضرورة اعتماد العملية الحوارية على الخطاب ذو الطابع العقلاني، ولن يكون هذا الخطاب عقلائي إلا إذا تعزز بالبرهان الذي يفرض مسبقا الحياد والمسؤولية مؤكدين في الوقت نفسه أنه لا سبيل لتحقيق حوار حقيقي إلا من خلال التراضي القائم بين أطراف العملية الحوارية والبعيدة، كل البعد عن كل أنواع العنف والاضطهاد، وفي إطار تداولية آبل وهابرماس برهنا على التبادل بين المتناقشين والمتحاورين، فالتداول بين المتخاطبين ينظر إلى اللغة في بعدها التحواري بل إنها تتخذ من الحوار مبحثا أساسيا من مباحثها أين اتخذ فلاسفة التواصل في فرانك فورت اللغة

¹ - علي عبود المحمداوي وآخرون، مدرسة فرانك فورت، ص 245.

² - كارل أوتو آبل، التفكير مع هابرماس ضد هابرماس، ص 23.

كوسيط حوارى بين جسور التفاهم والوفاق بين الشركاء، فشد هابرماس وآبل الهمم لدراسة شروط الخطاب وصحته ومصداقيته ودقته وأساليب الإقناع والبرهنة والمحااجة.¹

وكلما التزم الحوار بهذه الشروط حقق مبتغاه ووصل إلى تحقيق الاتفاق والإجماع بين المتحاورين باعتبار أن أي حوار تتخلله الاضطرابات ينعطف عن مساره ويتحول من حوار حقيقي إلى حوار زائف، مما ينبغي تبعاً لذلك اتفاق كل من هابرماس وآبل حول مبدأ الكونية الذي يقتضيه الإجماع فالكونية كما يدافع عنها كل منهما تقتضي تراضياً بين المعنيين، وهو بواسطة حوار يتم أثناء دفاع كل طرف عن موقفه بكل حرية ومساواة، مما يتيح لهم إمكانية الاقتناع والاقناع بأن مصلحة العامة مشتركة مع المصالح الخاصة.²

هذا وفي سياق موصول نجد أن موقف كارل أوتو آبل يؤيد إلى حد بعيد موقف هابرماس من الفلسفات العملية السابقة عليهم.

1- رفض الفلسفة الأرسطية باعتبارها فلسفة ذات أفق محدود تهتم بتحقيق الخير للفرد أو الجماعة محدودة ذات إطار جغرافي أو سياسي معلوم من حيث أن الأخلاق التي يسعى إليها كل من هابرماس وآبل لتحقيقها هي أخلاق ذات مجال أوسع وأعمق تتسم بطبيعة كلية وشمولية، غير مقتصرة على فئة محددة فلا تحدّها حدود مكانية أو زمانية، بل هي أخلاق شاملة للبشرية أجمع باختلاف مشاربها وأيديولوجياتها.

2- كما نجد رفضهما للأخلاق البرغماتية القائمة على المنفعة، فهذه الأخلاق في نظرهم أخلاق نسبية مرتبطة بميولات الأشخاص وتوجهاتهم مما يضفي عليها الطابع النسبي وهذا ما لم يقبله كل منهما لأنه لا بد من تحقيق السعادة وتحصيل الحقيقة التي ظلت مطلب البشرية منذ القدم، فالحقيقة في ظل البرغماتية تصبح متغيرة ونسبية وهذا من شأنه أن يؤدي إلى الاضطراب والفوضى.

¹ - علي عبود المحمداوي وآخرون، مدرسة فرانك فورت، ص 248.

² - أبو النور حمدي أبو النور حسن، الأخلاق والتواصلورغنهابرماس، ص 264.

3- ولم يكن موقفهما من الفلسفة الكانطية هي الأخرى كمرجع من مرجعيات الفلسفة الأخلاقية مختلفا فكلاهما ينظرا إليها نظرة توسطة، حيث أثارت فلسفة كانط لدى كل منهما إعجابا كبيرا، وذلك باعتراف كل منهما حيث يقول آبل: " إن أخلاق النقاش قد تشكلت باسم التحول التداولي الترسدنتالي للأخلاق الكانطية"، وفي السياق نفسه يقول هابرماس: " لقد بدأت أنا وزميلي آبل في السنوات الأخيرة في المحاولة لإعادة صياغة بشأن تأسيس المعايير، أي أن الأخلاق الكانطية، وذلك من خلال وسائل مستمدة من نظرية التواصل".¹ - وإن كان انحياز آبل إليها أكثر من انحياز هابرماس - غير أن الطابع الذي تميزت به الفلسفة الكانطية والمتمثل في المثالية والتعالي عن الواقع، وبقيتها محصورة في مجال فلسفة الوعي وعدم تحررها منها جعلها فلسفة ناقصة منغلقة على ذاتها، فهي لم تتجاوز الذات فهي بمثابة مونولوج أحادي بناجي الذات المتعالية تتفاعل كل ذات مع ذاتها، هذا الأمر عينه جعل كل من هابرماس وآبل يعتقدان في ضرورة إعادة صياغة لهذا المشروع الكانطي القائم على الأحادية إلى منطق جديد قائم على التفاعل والتواصل البنذاتي، فتنحصر هذه الفلسفة من فلسفة الوعي إلى فلسفة التواصل قائمة على تفاعل الذوات المتحاورة بدل العقل المكتفي بالوعي وحده، وإن كان كل منهما أعاد استثمارها بطريقته الخاصة وتوجهه الذي يؤمن به.

وهنا نتجلى لنا محاولة ربط كل من هابرماس وآبل العقل العملي والعقل النظري الذي ميزهما كانط الذي اعتبر أن الأخلاق الكانطية القائلة بالاستقلال التام للعقل العملي عن العقل النظري والقائل بأولوية احترام القانون الأخلاقي على البحث في النتائج² لتسجل بذلك أخلاقيات المناقشة التي صاغها كل من هابرماس وآبل تقدما ملحوظا لمفهوم الأخلاق التي صاغها كانط أين يتم تحريرها من شوائب الفكر الميتافيزيقي المتعلق على الذات وحدها، و الانتقال بالذات من إتيقا المبادئ والقواعد الأخلاقية القائمة فيها إلى إتيقا أخلاقية تتمثل الذوات الأخرى في إطار علاقة تفاعلية حوارية تضمن تحقيق الاتفاق والتفاهم بين الأطراف.

¹ - نقلا عن: عبير سعد، أخلاقيات الحاجة، ص 193.

² - علي عبود المحمداوي وآخرون، مدرسة فرانك فورت، ص 260.

ولتحويل أخلاق كانط الصورية إلى أخلاق عملية تطبيقية أكثر، فقد احتفظ هابرماس وكذلك الأمر مع صديقه آبل بالتمييز بين العقل النظري والعقل العملي، فأصبح من الضروري البحث من جديد في حدود التصور الكانطي للأخلاق وفي العلاقة الممكنة بين المعرفة والفعل وبين مفهومي الحق والواجب وبين فكري الإقناع الذاتي والمسؤولية الاجتماعية والإنسانية.¹ يفسر لنا رغبة كلا منهما في إعادة قراءة للفلسفة الكانطية ومن ثم إعادة صياغتها في نموذج جديد وهي الأخلاق التواصلية، إن هذا الموقف يمكنه الصمود ضد المواقف الريبية الأكسيولوجية، ومن ثم فإن كل مسلمة أخلاقية ينبغي أن تكون قادرة على إبراز المبدأ الأساسي الذي يسمح لهم بالوفاق العقلاني المحفز للكل، ليكون مبدأ كوني يمكن فهمه عبر الاستدلال الحجاجي.²

وفي سياق الحديث عن الخطاب العقلاني والمبرهن نجد كذلك اتفاق كل من هابرماس وآبل يؤكدون ضرورة احترام المعايير الأخلاقية والتي تعتبر بمثابة المسلمات التي تخضع لها كل عملية تواصلية بندائية، والتي تتمثل في (الصدق، المصادقية، المعقولية والدقة) إذ يرى كل منهما أنه لا سبيل لتحقيق عقلانية تواصلية إلا من خلال الالتزام بهذه المعايير أو الادعاء كأساس لتحقيق حوار ناجح والتي لا سبيل غيرها لتحقيق الإجماع والتفاهم فكل من هابرماس وصديقه آبل يشتركان معا في الاعتقاد بأن ضرورة الشروط التداولية والمعيارية للمحاجة تستند إلى مفهوم التناقض الإنجازي باعتبار أن المفهوم كما قيل يمكننا من الإشارة إلى تلك الشروط (الصدق، المصادقية الدقة، المعقولية) ليست عبارة عن مواضع تعاقدية بسيطة يجب أن نحترمها، بل هي شروط كونية ضرورية لا مناص منها نظرا لعدم وجود أي بديل عنها.³

¹ - أبو النور حمدي أبو النور حسن، يورغنهابرماس الأخلاق والتواصل، ص 258.

² - حسن مصدق، يورغنهابرماس ومدرسة فرانك فورت، ص 156.

³ - عبد القادر بليمان، الأسس العقلية للسياسة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 2007، ص 232.

المبحث الثاني: كارل أوتو آبل ناقدا لهابرماس

إن الحديث عن نقاط الاتفاق التي جمعت الفيلسوفين هابرماس وصديقه آبل لا يعني أنه لا توجد بينهما نقاط الاختلاف في مشروعيهما، وهي نقاط تميز بين التداولية الصورية الشكلية، والتداولية الترشدنتالية هذه الأخيرة التي تعود إلى مؤسسها آبل مما يعني إنجاز هذا الأخير إلى الإرث الكانطي بالرغم من بعض المأخذات التي قدمتها للفلسفة الكانطية والتي سبقت الإشارة إليها، في حين يتجلى لنا انحياز هابرماس للإرث الهيغلي أكثر ولقد سعى آبل نفسه لتقديم دراسة أو عرض يبين فيه مواطن الاتفاق والاختلاف بين المشروعين مع إقراره هو ذاته بصعوبة هذا الأمر ويتضح ذلك بقوله: «منذ انعقاد ملتقى 1985 الذي خصص لنظرية الفعل التواصلية المنخرط في محاولة لإعادة بناء الهيكل الأساسي لفلسفة هابرماس بدءاً من المعرفة والمصلحة، وذلك بغرض مقارنة صياغة النظرية مع أبحاثي الخاصة الموازية، إلا أنه ينبغي أن أعترف هنا أن الوصول إلى ذلك بشكل مرض صعب التحقق».¹

ولقد انطلق آبل في تبيان مواطن الاختلاف بينه وبين هابرماس من طبيعة الجواب الذي يفرضه التساؤل التالي: «هل يكفي (أو هل من الضروري) القيام بمناقشة فلسفية الرجوع إلى نفس موارد التفاهم المتبادل الموجودة في العالم المعيش، بمعنى آخر العودة إلى تقنيات لا يمكن أن توضع في موضع شك غير قابلة حتى أن تكون موضوعية كلياً ومع ذلك لا يمكن تجاوزها في الحياة العملية»² فالإجابة التي يفرضها هذا السؤال كانت محور الاختلاف بينهما، فحين ذهب آبل إلى اعتبار التفكير المتعالي الذي هو مصدر الشروط القبلية للتواصل باعتباره الوحيد القادر على إعطاء الأساس النهائي للأخلاق، أساساً مطلقاً غير قابل حتى للنقد أو للتجاوز أو الدحض، صالح في كل زمان ومكان، ليكون بذلك التفكير نزيه من كل الشوائب التجريبية الواقعية التي يمكن أن تجعله ذات طابع متغير ومنه نسي «فهي فرضيات للتفاهم المتبادل ليست تاريخية جائرة لكنها

¹ - كارل أوتو آبل، التفكير مع هابرماس ضد هابرماس، ص 21.

² - نفسه، ص ص 24-25.

شاملة بشكل غير قابل للنقض... فهي فرضيات تتجاوز من حيث المبدأ الموارد النسبوية الأشكال الحياة التاريخية الجائزة وهي بهذا المعنى ترسدنتالية»¹

في حين يذهب هايرماس إلى عكس هذا التوجه بتاتا، حيث يؤمن أن مصدر الأخلاق التواصلية إنما منبعه فرضيات العلوم الإنسانية. بمختلف فروعها (تاريخية، لغوية، اجتماعية، نفسية)، لأنها في نظره هي الفرضيات الأنسب بكونها محايدة للإنسان وواقعه بدلا من البحث عنها في أفق التفكير المتعالي البعيد كليا على أرض الواقع فهو ذا طابع مجرد محض.

فخلافا لآبل يعتقد هايرماس بأن تبريرا من هذا النوع لا يسمح ببناء نهائي للافتراضات المعيارية القائمة على المحاجة والبرهنة، لأن التحليل التأملي يضل النموذج الكانطي الميتافيزيقي الذي ينتج بالضرورة قبليا بالافتراضات موضوع سؤال، ذلك أن التحليل مهما بلغت قوته فهو لا يقوم مقام الواقع.²

وأمام هذه النقطة يتمظهر لنا وكأننا أمام الصراع الذي طالما عرفته الفلسفة بين المادي الواقعيوالمتعالي فحين انحاز آبل للإرث الفلسفي الكانطي وهو ما يمثل الفكر المثالي، فضل هايرماس الانحياز لهيجلباعتباره أكثر واقعية من كانط رافضا في الوقت نفسه الطابع المتعالي الترسدنتالي لأخلاقيات النقاش معتبرا إياها نقطة يتخللها الكثير من الشوائب الميتافيزيقية، ومن ضمن هذه الشوائب فكرة المطلقية وهي فكرة تحمل في طياتها بعضا من بذور الميتافيزيقا.

كما اعتبرها أخلاق توجهنا نحوى ما يمكن علينا فعله بمعنى أنها تعطي إمكانية قيام تأسيس نهائي (letzbegründung) لمبدأ الشموليانية، ولذلك نجد هايرماس يقول: «أما فيما يخص (letzbegründung) أو التأسيس النهائي فقد تجلت في محاولتي لإرساء هذا النسق إلى تطبيق إستراتيجية أقل استنباطية من إستراتيجية كارل أوتو آبل فهو مازال يعتقد أنه هناك ميتا-مقال Méta-Dicours خاص

1- كارل أوتو آبل، التفكير مع هايرماس ضد هايرماس، ص 27.

2- حسن مصدق، يورغنهايرماس ومدرسة فرانك فورت، ص 157.

استدلال ذاتي الإحالة من النمط الترسدننتالي يمكنه أن يمنح الفلسفة بما هي تخصص قائم بذاته وضعاً مميزاً عن باقي الفروع المعرفية الأخرى»¹ مؤكداً في السياق ذاته أنه لم يرد أن يكون إتيقا ذات طابع متعالي وذات تأسيس نهائي بقدر ما حاول أن يأسسها على أفق العالم المعيش.

ما جعل آبل هو الآخر ينتقد حدودها وقصورها باعتبار أن تأسيس أخلاقيات التواصل على مصدر العلوم الإنسانية وفرضياتها تأسيس غير ثابت فهي مرتبطة بالتغير واللاثبات بل معرضة للدحض والنقد في أي وقت، بل نجده يقر بأن من يرفض البديل التداولي الترسدننتالي إنما يعود إلى قصر نظرهم وفهمهم أن ذلك يعني بداية التراجع نحو الميتافيزيقا سواء تعلق الأمر بمبدأ قابلية الخطأ أو بالمفاهيم التي أصبحت واضحة بفعل تداولية اللغة وتاريخ التأويلية أم جواز كل ما يتعلق بفهم مسبق، وباتفاق مرحلي شكل اتفاق متبادل بين أطراف الجملة الحوارية،² غير أننا من جهة أخرى نجد هابرماس نفسه يبرر موقفه من هذا التأسيس بتقديم بديله الذي ينبثق وينتهي إلى العالم المعيش بكل تجلياته وأبعاده، حيث نجده يقول: «إني أعمل على بلورة تصور ينظر بعين التعددية لكل المقالات النظرية على اختلافها انطلاقاً من أنها -أي المقالات- وفي أحسن الأحوال لن يكون أمامها سوى التمفصل حول بعضها البعض دون أن يكون في مقدور أي منها ادعاء الأفضلية والامتياز عن غيره سواء قلب الأمر ودق مقارنة شموليانية أو نظر إليها انطلاقاً من زاوية اختزالية كما في الفلسفة والنظرية الاجتماعية، وكذلك في الفيزياء والبيولوجيا وفيزيولوجيا الجهاز العصبي».³

ولم تكن الإجابة التي تفترضها تلك الإشكالية سهلة وواضحة بحسب آبل كون هابرماس نفسه أراد التملص من الإجابة أو البديل الذي طرحه آبل، وأكد دفاعه عنه، ليقول بدوره: «أن هابرماس يقدم تصوراً شبهترسدننتالي من خلال رغبته في الحفاظ على شمولية المزاعم الصلاحية والتي يحتويها كل خطاب إنساني

¹ - يورغن هابرماس، إتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، ص 33.

² - كارل أوتو آبل، التفكير مع هابرماس ضد هابرماس، ص 27.

³ - يورغن هابرماس، إتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، ص 33.

وهي في نظره افتراضات طابع مثالي... وفي مقابل ذلك نجد أن هابرماس رفض دوما تأسيس نهائي صالح بصورة قبلية للزعم الفلسفي بصلاحة المنطوقات الشاملة التداولية الخاصة بالفرضيات الضرورية للمناقشة الحجاجية معتبرا ذلك مستحيلا ولا جدوى منه»¹.

ويواصل آبل عرض أفكاره التي تتضمن أهم نقاط الاختلاف بين فلسفته وفلسفة هابرماس ليؤكد أن "هابرماس قد وقع في جب التناقض، حين اعترض على الفرضيات الأساسية لأخلاقية التواصل ذات الطبعة الترسدنتالية أو التداولية (الشاملة) مستخدما في مقابل ذلك دون تحديد يذكر مبدأ القابلية للخطأ مع منطوقات صالحة عمليا وتطبيقيا بسبب اعتقاده"²، معترفا في الوقت نفسه ومنذ البداية عرضه لأطروحة في نظرية العقل التواصلية عن الإمكان العقلي المسبق بالعالم المرتبط بموارد العالم المعيش، وأن هذا الفهم للعالم مرتبط بجماعة محددة لشكل معين من الحياة السوسيو-ثقافية فيقول في هذا الصدد: «وفي حدود ما يحق لي أن أحكم نجد لدى هابرماس السياحة التاريخية والحوار المبدئي للشروط الضرورية للتواصل»³.

فهابرماس يؤمن بإمكانية الدخول في المناقشات الحجاجية دون الحاجة بتاتا إلى وضع أي افتراض أو أساس ترسدنتالي باعتبار أن العالم المعيش وحده كفيل بتوفير كل تلك الافتراضات الأساسية في العملية الحوارية وهي تتجلى في كل ممارسة عملية أثناء العملية الحوارية.

وبناء على هذا الافتراض الذي أقامه هابرماس نجد آبل يستخلص النتائج التالية وفقا لهذا الافتراض

_افتراض هابرماس - لتأسيس إتيقا المناقشة:

1- التوصل إلى صيغة ضعيفة للتأسيس التداولي الترسدنتالي للمبادئ الأساسية للأخلاق طالما كان العالم المعيش

هو مصدر الشروط الضرورية لكل عملية تواصلية.

¹ - كارل أوتو آبل، التفكير مع هابرماس ضد هابرماس ، ص 28.

² - نفسه ، ص 29.

³ - نفسه، ص 32.

2- رفض أطروحة التأسيس النهائي لمبادئ الأخلاق رفضاً تاماً مؤكداً عدم جداؤه، وقد استخلص هابرماس هذه النتيجة بأنها أطروحة لا تنتمي إلى الأخلاقية المعيشية - في كل حالة خاصة - وإنما هي أقرب إلى مبادئ أخلاقية كانطية بالدرجة الأولى: «لنقل بمعنى التحول للكانطي لأخلاقية النقاش لتمثيل المعايير الشكلية هذه المعايير هي المعايير الشاملة الوحيدة للواجب، نفرض بالضرورة على كل التقديرات الخاصة بالحياة الطيبة».¹

إن إصرار هابرماس على ضرورة استبدال التأسيس النهائي للأخلاق من خلال اللجوء إلى الأخلاقية التي كانت دائماً منغرسه في بنية النشاط التواصلية وإلا سيؤول عن ذلك وقوع الفرد في التدمير الذاتي.

ورداً على القراءة النقدية التي وجهها آبل لزميله هابرماس نجد أن هابرماس قد قدم رأيه في تداولية آبل ففي رد على أحد محاوريه وهو "أرنوديجاردان"^{*} حين سألته عن طبيعة العلاقة التي تربط مقارنته بمقاربة آبل، يشير هابرماس أنه من بين المقاربات الأخلاقية المعرفية والإدراكية التي كان قد اطلع عليها، فلم يرق له أكثر من مقاربة آبل باعتبارها المقاربة الأكثر طموحاً ونضجاً بحسب ما يدعي، غير أن بناءها لم يتسق مع البعد التداولي اللغوي، وفيما يتعلق بمبدأ التأسيس النهائي فقد أشار أنه يقبل تأسيس مبدأ الكونية بناءً على استنتاج افتراضات مسبقة تداولية كونية للمحاجة لكنه يرفض التأسيس المتعالي، فمنح هذا التأسيس النهائي الترسدنتالي الطابع المطلق، يجعله أقرب إلى الأطروحات الميتافيزيقية منها إلى الأطروحات العملية والعلمية مبيناً ذلك في قوله: «إن مشروع التأسيس النهائي مرتبط بافتراضات تصبح استراتيجية والمتمثلة في البحث عن الحججة

¹ - كارل أوتو آبل، التفكير مع هابرماس ضد هابرماس، ص 37.

^{*} - أرنوديجاردان Desjanrdin.Arاند من مواليد 1925 مخرج تلفزيوني وثق للعديد من العادات والتقاليد الروحية الغربية مثل البوذية والهندوسية ويعتد من أبرز دعاة الحوار بين الثقافات والأديان المختلفة، من أهم مؤلفاته دروب الحكمة، وقد جاء على ثلاثة أجزاء.

الوحيدة والكافية إستراتيجية حاوية ولا معنى لها¹ فهذا المطلب الذي يلح عليه آبل لن يكون قادرا على الصمود في وجه الريبي حسب ما يدعي هايرماس.

فهايرماس يرفض الطرح الخاص بالبراغماتيقاالترسدنتالية لآبل نظرا للخلط الذي يحتويه مفهوم الترسدنتالي الذي لا يظهر بوضوح القطيعة مع فكرة القبلية، في مقابل ذلك يظل آبل مرتبطا بالخطاب الترسدنتالي، ويرى أن الوظيفة النهائية للفلسفة هي إنتاج خطاب ترسدنتالي متعالي يحدد بكيفية نظامية شروط الإمكان، وصلاحيات الاتفاقات في الخطاب الترسدنتالي وحده الكفيل بتوفير الأسس النهائية لكل فلسفة نظرية وعملية بل ولكل علم² وليس كما ادعى هايرماس حين نظر إلى فكرة التأسيس النهائية على أنها حاجز أمام الفلسفات العلمية والعملية.

وفي نقطة أخرى و من جملة النقاط التي أثارت سجالاتا فلسفيا بين أهم ممثلي مدرسة فرانكفورت تمثلت في انتقاد آبل لزميله هايرماس حول مواصفات مبدأ المناقشة فهايرماس حسب آبل قد فصل بين إتيقا الحق وإتيقا النقاش ولذلك كان لفلسفته وجهين وجه سياسي و آخر أخلاقي، وأن العلاقة بينهما هي علاقة تكامل من أجل تسهيل سبل التواصل في حين رأى آبل ضرورة إلحاق مشكلة الحق بمشكلة الأخلاق باعتبار أن الحق يمرر بواسطة إتيقا النقاش.³

كما يذهب هايرماس إلى نقطة أخرى والتي أثارها الجدل بينه وبين آبل وتتمثل في أنه لدى آبل نزعة تأسيسية مضادة ميتافيزيقية لمنحنى المنعرج اللغوي، فالتداولية اللغوية تفترض أن كل معرفة لا بد من أن تتوسطها

¹ - يورغنهايرماس، إتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، ص 32.

² - فوزية شرا، فلسفة اللغة عند يورغنهايرماس، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، العلوم في الفلسفة، إشراف: فريدة غيو، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة 2009-2010، ص 195.

³ - محمد بوحجلة، الحوار الفلسفي بين هايرماس وآبل حول تطبيق إتيقا النقاش، ص 81.

اللغة وأن المعايير لا بد من تبريرها من قبل الجماعة اللغوية، لأن كل محاولة لتأسيس نهائي لقواعد المحاججة سوف يفتح أسبقية التبرير التأملي على حساب المناقشة.¹

ومنه فالتخلي عن الطرح القائل حسب هايرماس بأن مصدر الافتراضات هو التفكير الترسدنتالي وأن الإيمان بمطلقية وضرورة التمسك بمبدأ الكونية ذا الطبيعة الترسدنتالية ليست من الأمور الواجبة، بل أن التخلص منه لا يشكل فرقا.

إذن نقطة الخلاف المحورية بين آبل وهايرماس تمحورت حول الإجابة التي فرضتها فكرة التأسيس النهائي لطريقة البرهنة وأخلاقيتها، فعندما ذهب آبل إلى ضرورة احترام معيار أساسي مسبق، أي أن كل المشاركين في العملية الحوارية أو المناقشين يكونون على استعداد للمثول للمعايير المفروضة مسبقا والتقيد بها أي أن الجميع خاضع، أما هايرماس فرفض هذا الطرح مبينا أن هذا الشرط يؤدي إلى نتائج لأخلاقية وليس هذا هو المطلوب للمعايير حسب هايرماس تتكون من خلال الممارسة البرهانية وهي قابلة للتعديل والتغيير.

ومنه فإن آبل ينزع إلى التيار التأسيسي (fondamentalisme) بدل إعادة البناء والتشديد عند هايرماس، لقد انخرط آبل في إطار المقابلة الترسدنتالية الهادفة إلى إبراز الافتراضات النظرية النهائية للتأملات الضرورية للممارسة المفترضة.²

ونشير أنه لمواصلة هذا السجال القائم بين كل من فيلسوف التداولية الشكلية وفيلسوف التداولية الترسدنتالية، فقد أصدر آبل كتابا عنونه بـ "المناقشة والمسؤولية" حاول آبل في هذا الكتاب الدفع بمسألة إيجاد تطبيق أكثر مسؤولية لإتيقا المواجهة، بل جعلها مطلبا ملحا، وأدرجها إلى واجهة أعماله، فقد بات وعيه بمسألة تطبيق إتيقا المناقشة أمرا لا غنى عنه، ليضيف بذلك جزء آخر "B" كان بمثابة تكملة للجزء الأول الحارصا

¹ - جميلة حنفي، يورغن هايرماس من الحداثة إلى المقولية التواصلية، ص 202.

² - جان مارك فيري، فلسفة التواصل، ص 60.

أن تكون إتيقا مسؤولة منشغلة بالتاريخ وهي ذات طبيعة غائبة، فهذا القسم الذي أدرجه آبل يعتبر بمثابة المكمل للمبدأ الأول وهو مبدأ الشمولانية الذي كان يعتقد أنه لم يطبق على أكمل وجه.

وما يمكن قوله إجمالاً حول إتيقا المناقشة التي صاغها رعيلى مدرسة فرانك فورت في جيلها الثاني " يورغنهابرماس " وصديقه " كارل أوتو آبل " أنها تراوحت بين مستويين البناء، ومستوى التأسيس، أما الأول فقد مثله هايرماس ويحيل إلى إخراج الحوار من دائرة الصراع والنزاع التي قد تحول دون تحقيق التفاهم من خلال تقديم الأدلة والبراهين على كل حكم نقدمه، أما الثانية فيمثلها آبل فإنه لا يستثنى حتى المعايير ذاتها فقد يحدث التصادم فيها ما لم يتم إقامتها على أساس آخر، ألا وهو الأساس التروسدنتالي، فبدون هذا الأخير تبقى هذه المعايير مجرد أحكام تقريرية، وبالتالي سوف ينتج عن من يعارضها الوقوع في التناقض الإنشائي.

تقييم عام:

تأسيسا على ما تم التطرق إليه من خلال توضيح النقاط التي أيد فيها كارل أوتو آبل زميله هايرماسبالإضافة أيضا إلى تبين مواطن النقد التي وجهها له، ودائما في إطار ما يتعلق بإتيقا المناقشة فإنه يبدو لنا أن آبل في إطار مقاربتة التروسدنتالية كان صائبا إلى حد ما في تأييده لهايرماس حين آمن أنه لا سبيل أمام الحداثة حتى تصحح مسارها وتندفع نحو أفق جديد يحفظ عقلانية الإنسان من الغلو والانحراف، إلا من خلال العقل التواصلى الذي أساسه التفاعل البينداتي القائم على محور المساواة بين الأطراف المتحاورة وخاصة بعد أن فقد التواصل في يومنا هذا سماته الحقيقة في المجتمع بعد طغيان المادة وسيطرة التقنية التي حجرت العقول وشيئت الإنسان.

كما يبدو صائبا في تأييده له فيما يتعلق بإتيقا المناقشة، حيث أكد على ضرورة الالتزام بجملة من الأخلاقيات التي يمكن أن تضبط مناقشتنا وحوارنا المحمل بجملة من الإدعاءات (الصدق، المصادقية، الدقة المعقولة) التي من شأنها أن تساعد الأفراد المتحاورون على الوصول إلى تحقيق التفاهم والاتفاق، ذلك أن المناقشة التي تجمع الأفراد ليست نشاطات عشوائية بقدر ما هي جملة من الضوابط والمعايير.

لكن يبدو أن حلقة النقد لازالت مستمرة، فإذا كانت الأسبقية لهابرماس في مقاله الناقد لـ هايدوغر "التفكير مع هايدوغر ضد هايدوغر" فإن آبل قد قدم هو الآخر كتاب بعنوان "التفكير مع هابرماس ضد هابرماس" والذي تطرق من خلاله إلى جملة من الانتقادات التي وجهها لطرح هابرماس في مجال إتيقا المناقشة فإن آبل نفسه لم يسلم من هذا النقد فها هو جون مارك فيري ينتقد آبل في كتابه " فلسفة التواصل" بعنصر عنونه ب "التفكير مع آبل ضد آبل".

فالتحليل التأملي والتفكير المتعالي مهما بلغت قوته بل واتساقه المنطقي فهو لن يقوم مقام الواقع، فهذا الأخير هو الفضاء الذي يعيش فيه الإنسان بكل كيانه ويثأر بجميع مرجعياته السياسية،الاقتصادية،الاجتماعية والثقافية، ويتضح لنا ذلك من خلال قوله:

« إن القول بوجود أساس نهائي للعقل هو بالنسبة إلي قول فارغ، ذلك أنه ما من حدس أو إدراك متحرك في حركة الحياة يمكن أن يحمل الفيلسوف إلى مستوى التجربة تسمح له بإصدار حكم نهائي حول العقل إجمالاً»¹

وقد بين فيري أن القصد من وراء قوله "التفكير مع آبل ضد آبل" أنه رفض فكرة التأسيس النهائي التي نادى بها، وإن كان في حقيقة الأمر لا يهتم بنية التأسيس مؤكدا في الوقت نفسه أن البديل الأمثل عن هذا التأسيس الذي يعتمد على التأسيس النظري والسلوك التأملي سيتحول إلى سلوك أدائي محدد تحديدا عمليا ذو بعد تطبيقي، وفي السياق نفسه يطرح فيري تساؤله وهو كيف يمكن أن نثبت مبدأ العقل العملي في مواجهة الريبية؟

وقد أشار فيري أن حجته تختلف هنا عن الحجة التي صاغها آبل، ذلك أن هذا الأخير بين مهمة التأسيس النهائي تلخص في الإبانة عن الشروط العقلية فقط، في حين تختلف حجة فيري عن هذا الأخير مؤكدا أن العصمة التي تتمتع بها هذه المنطوقات التروسدنتالية تتعلق بإمكانية العقل العملي، وبالتالي فإن مبدأ

¹ - جان مارك فيري، فلسفة التواصل، ص 87.

التناقض الذي تركز عليه الحججة التروسدنتالية لصالح التأسيس النهائي هو مجاز حصري من قبل الشعور خاص بالبداية .

هذا ما يتعلق بجملة الانتقادات التي وجهها فيري نحو تصور آبل التروسدنتالي وقد أشار حسن مصدق* بدوره إلى تروسدنتالية آبل أنها لا توجه الواقع، وإنما يرجع إليه أمر الارتقاء إليها، وأن الإحالة عليها بوصفها فكرة ضابطة لا تمنع من إثارة مشاكل حول الشروط القبلية التي تفترض في جماعة التواصل، أنها تتحلى بالكونية كما يزعم آبل.¹

وبهذا يكون الطرح الذي قدمه آبل هو الآخر في مقابل مقارنة هابرماس الصورية قد تعرض هو الآخر لعدة مآخذ وهذا بطبيعة الحال واقع الفلسفة.

وبناء على هذه التقييمات لفلسفة آبل فإن أننا نجد أن هناك نوع من الأفضلية النسبية لنظرية هابرماس على حساب نظرية آبل، ذلك لأن نظرية هابرماس مناسبة وتتوافق إلى حد ما مع الواقع المعاش، بكل تجلياته السياسية والاجتماعية الراهنة، وخاصة مع المجتمع اللبرالي الغربي لأنها تقيم علاقة تكامل وظيفي بين الأخلاق والسياسة، فبالتكامل بين البنى الاجتماعية المختلفة يحدث التفاعل الذي من شأنه أن يطور كل جانب، ويحرر العالم المعيش في النهاية، في حين أحالت نظرية آبل إلى تأسيس علاقة إشكالية بين الأخلاق والسياسة، حيث جعل الأخلاق هي المبدأ الأول و العام، وأن السياسة تابعة للأخلاق.² وبالتالي فإن نظرية آبل تبدو أكثر مثالية وأكثر بعدا عن التطبيق.

* - حسن مصدق: كاتب مغربي وباحث بجامعة السربون .

¹ - حسن مصدق، مدرسة فرانك فورت النقدية، ص 164.

² - محمد بو حجلة، الحوار الفلسفي بينور غنهابر ماسو كارل أوتو آبل حول تطبيق آيتيقا النقاش، مجلة الحوار الثقافي، مخبر حوار الحضارات، عدد 9، 2016، ص 83.

المبحث الثالث: من إتيقا المناقشة إلى إتيقا الاعتراف.

أولاً: مدرسة فرانك فورت.

تأسست مدرسة فرانك فورت سنة 1923 على يد المسؤول الأرسطراطي للمعهد ماكس هوركهيمر والذي آمن أن النظرية النقدية يتعين عليها أن تكون نشاطاً نظرياً جديداً متعدد التخصصات بكل الفلسفة الجدلية لهيجل وماركس، ويفتش في الأفكار بتعمق من خلال تخصصات علم النفس وعلم الاجتماع والانتروبولوجيا والأدب وغيرها من العلوم، وقد استعان أعضاء النظرية بعدد من أفكار الفلاسفة أمثال نيتشه وشوبنهاور، وهذا سعياً منهم لتحقيق منهج كفيلاً باستطاعته أن يجعلهم يفهمون المجتمع الغربي وخاصة في ظل المتغيرات التي يشهدها، والرهانات الغير مسبوقه في تاريخ الحضارة الغربية على وجه الخصوص والعالم على وجه العموم، والتي تركزت بفعل ما يسمى الرأسمالية كمفهوم اقتصادي، وتحت شعار الحرية كمفهوم فلسفي والليبرالية كمفهوم سياسي، وأصبحت عبارة مدرسة فرانك فورت تستخدم على نطاق واسع لتدل في الآن معاً على مجموعة من المفكرين وعلى نظرية اجتماعية بعينها، وكان المعينون مرتبطين بمعهد البحث الاجتماعي الذي تم إنشائه في مدرسة فرانك فورت¹.

1- نقد العقل الأداتي:

انكب العديد من فلاسفة مدرسة فرانك فورت على تشخيص هذا الواقع وفهمه فهما صحيحاً بغية معرفة أسباب المرض فيه، معتمداً في ذلك على التأمل والجدل والنقد، ولقد كانت هذه النظرية النقدية تأملية ذات وعي متأصل "فالنظرية النقدية تأملت السياق الاجتماعي الذي أدى إلى نشأتها ووظيفتها داخل المجتمع وأغراض ممارستها واهتمامهم وما إلى ذلك، وكانت هذه التأملات داخل النظرية"²، وما خلصت إليه هذه

¹ - فيل سليتر، مدرسة فرانك فورت، نشأتها ومغزاها من وجهة نظر ماركسية، ترجمة جليل كلفتا، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط02، 2004،

² - جيمس جوردن فينلسيون، يورغنهابرماس، مقدمة قصيرة جداً، ص 21.

النظرية أن المشكلات التي بات يعاني منها الإنسان الغربي هي أزمة عقل أو مشكلة عقل، هذا العقل الذي بات يؤمن بالخضوع والركون إلى المادة التي أبدعها وأنتجها هو بيده، وكأنه في هذه الصورة أصبح الإنسان عبداً لمخلوقه (منتجاته التي ينتجها ويصنعها)، ما جعل هابرماس يصرح قائلاً: «فالعالم والتقنية قد زادا من مساحة الحرية على حساب انحلال اجتماعي أو فك السحر عن الطبيعة الخارجية، ويبدو أنه لا بد من وضع حد لهذه التزعة الجامحة، من خلال ثابوثات مصطنعة وثابتنا من خلال إعادة السحر إلى الطبيعة»¹.

لقد غزت التقنية والتكنولوجيا العالم أجمع بما فيه الإنسان ذاته، فأطلقت العنان لنفسها متمسكة في ذلك عذر الحرية والراحة ولتحقيق السعادة للإنسان، هذا ما جعل أنصار مدرسة فرانك فورت - أنصار النظرية النقدية - يطلقون على هذا العقل مصطلح العقل الأداة، هذا الأخير الذي لا هم له سوى تحقيق المصالح المادية، وبات كل شيء خاضع لحسابات مادية كمية، بما فيها العلاقات الإنسانية، ما جعل أصحاب الجيل الأول من هذه المدرسة ينكرون هذا العقل ويتهمونه بكل تلك الجرائم التي حدثت ولا تزال تحدث إلى يومنا هذا في العالم بأسره، ومن مظاهرة - أي العقل الأداة - فقدان الإنسان لإنسانيته المتكاملة، أين نجد أن الجانب المادي فيه قد طغى على حساب الجانب الروحي، فأصبح الإنسان بفعل هذا ذو جانب واحد أو كما أطلق عليه ماركيز "الإنسان ذو البعد الواحد" وقد عبر كل من أدورنواوهوركهيمر عن هذا المجتمع الصناعي وما آل إليه بقولهما: «أما الصناعة فقد حرمت الفرد من وظيفته والخدمة الأولى التي قدمتها للزبون قد تمتلت في جعل كل شيء ترسمة»².

¹ - يورغنهابرماس، مستقبل الطبيعة الإنسانية نحوى نسالة لبرالية، ترجمة جورج كثورة، مراجعة أنطوان الهاشم، المكتبة الشرقية، لبنان، ط01، 2006، ص 35.

² - ماكس هوركهيمر، تبودورفأدورنواو، جدل التنوير، ترجمة: جورج بطرس كثورة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، لبنان، ط01، 2003، ص 146.

ومن هنا فقد كانت الصبغة العامة التي صبغت موقف أعضاء مدرسة فرانك فورت في جيلها الأول هو النقد أو بالأحرى نقد العقل الأداتي فاختصرت الحياة الاجتماعية بفعل هذا النقد إلى مجرد هيمنة إعادة الإنتاج وإنكار الإبداع أو إبداعية الفعل وقد وصل إلى طريق نظري وسياسي مسدود، وهاهو كل من آبل وكذا هابرماس يمثلون الحقيقة الثانية من هذه المدرسة، أو الجيل الثاني يساهمون بشكل كبير في التخلص من هذا التعريف وحيد البعد للعقل، وذلك بإحالة بعض الثنائيات له في قلب النظرية النقدية التقدمية عن طريق سلسلة من الثنائيات (العقل الأداتي/العقل التواصلية، المنظومة/العالم المعيش)، وكذلك ينتج التجديد باتجاه الديمقراطية.¹

2- إتيقا المناقشة كمنخرج من أزمة الحداثة:

لقد آمن كل من هابرماس وآبل بأنه لا سبيل للخروج من أزمة العقل الغربي إلا من خلال العقل ذاته لأنه وحده القادر والكفيل على إحداث تغييرات على مستوى الواقع الاجتماعي، وما علينا فعله هو تحويل هذا العقل من كفته الأداتية إلى كفة أخرى تواصلية، هذا التواصل الذي يعتبر السبيل الوحيد لربط أوصل العالم الذي تقطعت أوصاله وغاب في متاهات الانحلال والتفكك والتجزؤ، وقد ركز أنصار هذه الأطروحة على آلية اللغة باعتبارها الوسيط الوحيد القادر على تفعيل العلاقة البنذاتية بين الأفراد من خلال استنادهم إلى الدراسات اللغوية التي قام بها زعماء الفلسفة والمنطقيين أمثال فريجه وكذا فيتجنشتين، وكذلك أبحاث كل من أوستين وسيرل وغيرهم من زعماء اللغة ممن يعود لهم الفضل في تأسيس ما يعرف بالتداولية.

فبعدما كانت اللغة حبيسة الدال والمدلول، تحررت الآن وأصبحت تنظر للمدلول أو المعنى داخل السياق الذي يتلفظ به الشخص، فالمعنى أصبح مرتبط بالحالات النفسية والاجتماعية وبتعدد السياقات وقد تم

¹ - قليب كابان، جان فرانسوا دورتيه، علما لإجماع: من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية، ترجمة: إلياس حسن، دار الفرنقد، ط01،

بلورة هذا الاتجاه فيما يعرف عند آبل وهابرماس "بإتيقا المناقشة" التي تعني تفعيل العقل وتحقيقه لأهدافه المرجوة.

وحتى يستطلع هذا العقل تحقيق طموحه لا بد له من أن يلتزم بتقديم خطابات ذات طابع عقلائي أساسه البرهنة والحجة الأقوى، فالركيزة الأساسية في أي عملية حوارية أو مناقشة تعتمد في أساسها على ما يصطلح عليه "بالحاجة" التي تلتزم هي الأخرى بجملة من الإدعاءات التي تضمن صلاحيتها والمتمثلة في (الصحة، الصدق الدقة، المعقولية)، فمن خلال إتيقا المناقشة (أخلاقيات التواصل) طرح آبل وزميله هابرماس بديلا عن العقل الأداتي، فإذا كان أنصار مدرسة فرانك فورت في جيلها الأول قد اكتفوا بالنقد وآمنوا بما يسمى بالجدل السالب فإن الجيل الثاني قدم البديل الذي يهدف إلى بناء ركيزة جديدة تركز عليها الحضارة الغربية التي قطعت كل أوصالها، وتبددت كل قيمها، وباتت أخلاقها ومبادئها في الحضيض تناجي من يرفع شأنها.

وكان بديلهم يتمثل في إتيقا المناقشة (أو إتيقا التواصل) التي تركز بدرجة أولى على الخطاب وإن كانت هذه النظرية في الخطاب الخلفي لا تجيب عن سؤال "ماذا ينبغي أن أفعل؟" بل تهدف إلى كشف الستار عن الظروف التي يستطيع في ظلها الفاعلون الأخلاقيون الحداثيون الإجابة بنجاح عن السؤال بأنفسهم فهو يعني في المقام الأول بأسئلة من قبل المبادئ الأساسية الكامنة وراء الخلقية، وكيف يمكن تشييد معايير أخلاقية صحيحة.¹

3- إتيقا المناقشة في الميزان:

إن الطرح الذي قدمه كل من آبل وهابرماس لم يسلم من النقد، وهذا بطبيعة الحال حال الفلسفة باعتبار هذه الأخيرة هي تاريخ نقد، فلولاها لما تطور الفكر ووصل ماهو عليه اليوم لأنه يبقى تلك الوثوقية التي تجعل الإنسان واقفا في توهم أنه قد حصل الحقيقة التي لا حقيقة بعدها.

¹ - جيمس جوردن فينيلسون، يورغن هابرماس مقدمة قصيرة جدا، ص 88.

ومن جملة الاعتراضات التي تعرضت لها نظرية إتيقا المناقشة نجد ما عرض له حسن مصدق في المستويين.

المستوى الأول: يتعلق إذا بوسع مبادئ العلم الإجرائية لإيجاد تعليل مقبول لصلاحيه المعايير المختلفة عبر نهج طريق البرهان، أين تفحص تلك الانتقادات صحة وحقيقة فاعلية أخلاقيات المناقشة، من خلال إخضاع قدرتها على التعليل والتمحيص.¹

المستوى الثاني: انتقادات موجهة إلى أهم مبدأ من مبادئ إتيقا المناقشة وهو "مبدأ الكونية" والذي تتبناه إتيقا المناقشة كشرط لا بد من أن تستوفيه المعايير والقوانين، وفي السياق نفسه فقد تمت إثارة العديد من الشكوك حول

أخلاقيات المناقشة نفسها بوصفها فلسفة للتواصل.²

فإذا انطلقنا من أهم محور تبتيغه فلسفة التواصل وتسعى لتحقيقه بل وركزت عليه بشكل كبير وهو ما يعرف "الحالة المثالية للكلام" هذا المطلب الذي يهدف إلى تحصيل مناقشة بين أطراف متحاورة لا يشوبها لا النقص ولا أي حاجز يمكن أن يحول بين الأفراد وتحقيق هذا الهدف، غير أن الواقع يفرض نفسه بصورة أخرى مغايرة لذلك التصور المثالي، فهذا المطلب صعب المنال، وخاصة أن هذا الواقع تحفه الكثير من العوائق أبرزها طبيعة الإنسان في حد ذاته المشحونة بالكثير من الأطماع والنيات السيئة، هذا الأمر عينه جعل الكثير من الباحثين يهتمونها بالمثالية، لأنها تتضمن افتراضات بعيدة كل البعد عن الواقع ومقتضياته وهي (الصدق، المصدقية الدقة، المعقولية) وبالتالي استحالة التطابق بين افتراضات مثالية وواقع اجتماعي، حيث يصرح هايرماس نفسه قائلاً: « إن التفاعلات الاجتماعية غير مرتبطة في مجموعها بالعقلانية التواصلية، فهي

¹ - حسن مصدق، يورغنهايرماس ومدرسة فرانك فورت، ص 159.

² - حسن مصدق، يورغن هايرماس و مدرسة فرانك فورت، ص 159.

في غالب الأحيان خاضعة لإكراهات من نوع غائي واستراتيجي¹، وهذا من شأنه أن يضفي التوتر على الممارسة التواصلية اليومية.

ومن بين الاعتراضات الأخرى التي توجه نحوى مبدأ الكونية هو ما وجه مباشرة إلى الشروط اللغوية المعيارية (الدقة، الصدق، المصدقية، المعقولة) التي ينبغي أن يأخذ بها كل طرف في المناقشة (كطرف عاقل) فهذه الافتراضات عارضة قد لا تضمن التزام كل الأطراف بها، كما بين أكسل هونيث* وهو أحد ممثلي مدرسة فرانكفورت في جيلها الثالث على أن إتيقا المناقشة عند هابرماس هي نوع من الاستبداد، حيث لا يمكن أن تلزم كل طرف محاوره على تقديم أدلة وبراهين عقلية على ادعائه، فكثيرة هي المواقف التي لا يستطيع الإنسان البرهنة عليها عقليا، وبالتالي لا بد من تجاوز هذه المقاربة إلى مقاربة الاعتراف.

ثانيا: إتيقا الاعتراف كتجاوز لإتيقا المناقشة.

مما سبق يتضح لنا أن هذه الإتيقا لم تكن وحدها كفيلا وقادرة على الصمود أمام جل التغيرات والتطورات، فالإنسان والمجتمع والتاريخ يتميز بالديناميكية، وبالتالي فمسيرة الأفكار وتغيرها وتطورها أمر حتمي لا مفر منه، فإذا كانت إتيقا المناقشة والتواصل فعالة في زمن آبل وهابرماس فإنها لم تعد كذلك في زمن إكسلهونيث، هذا الأخير الذي يعتبر من أبرز تلاميذ هابرماس، والذي قدم طرحا جديدا يتميز بالمرونة والدقة والموضوعية إلى حد كبير وهو مشروع جديد اندرج تحت مسمى إتيقا الاعتراف، فما هو مضمون هذا الطرح؟ ولماذا دعى إكسلهونيث ومن والاه من أنصار هذه النظرية إلى ضرورة الانتقال من منطق التواصل إلى منطق

¹ - نقلا عن: أبو النور حمدي أبو النور حسن، ص ص 270-271.

* إكسلهونيث (Axel Honneth. 1949) فيلسوف ألماني ولد بمدينة أسبن بألماني، درس الفلسفة، علم الاجتماع، ويعتبر من أبرز تلاميذ هابرماس، كان في بداية حياته متأثرا بفكر هابرماس، ثم عمل على تغيير تلك النمطية وتجاوز النقائص التي وقع فيها أنصار مدرسة فرانك فورت في جيلها الثاني، وذلك بتأسيس فلسفة جديدة تقوم على نموذج الاعتراف، وبهذا يصبح هونيث من ممثلي الجيل الثالث لمدرسة فرانك فورت وقد نال في مقابل ذلك شهرة واسعة في مدرسة فرانك فورت بل في العالم الأنجلوساكسوني كله، ومن أهم مؤلفاته: الصراع من أجل اعتراف 1992، فلسفة حق لهيجل 2001 .

الاعتراف؟ وماهي مبرراتها؟ وهل أطروحة الاعتراف فلسفة مكملة لأطروحة التواصل؟ أم أن هناك قطعة بينهما؟.

1- تأسيس إتيقا الاعتراف:

لقد سعى إكسلهونيث إلى تأسيس مقارنة جديدة يتجاوز من خلالها مقارنة الجيل الثاني (آبل وهابرماس) المتمثلة في إتيقا التواصل، وذلك بغية إعطاء مدرسة فرانك فورت نفساً جديداً لهذا التيار الفلسفي وذلك من باب التطوير لا من باب الهدم والتخريب.

أول محور تقوم عليه هذه المقاربة هو تجاوز مبدأ التواصل أو إتيقا التواصل كما نادى بها هابرماس وصديقه آبل من باب أنه لا يمكن لنا على الإطلاق الحديث عن التواصل إذا كانت الأطراف غير معترفة ببعضها البعض فأنا أتواصل مع من أعترف بهم، فالاعتراف يعني في مضمونه نقل الشيء من اللاوجود إلى الوجود بالنسبة إلى الذات المتحاور أو المتناقشة وهنا يصبح مبدأ الاعتراف أسبق من مبدأ التواصل، أتواصل عندما أعترف.

وهذه المقاربة تستند إلى ما يسمى بـ"الصراع من أجل الاعتراف" ولن يتحقق ذلك إلا بالرجوع إلى فلسفة هيجل الذي اعتبر هوية الفرد ووجوده مرهون بمدى ارتباطه العضوي والتكامل بالمجتمع الذي يعيش فيه والذي يأخذ فيه أدواره الاجتماعية والسياسية وبالتالي فإن اكتماله يتوقف حتماً على هذا الارتباط والانسجام والاعتراف المتبادل¹، وما هذا إلا نتيجة لطبيعة الذات الحقيقية، فالذات بطبيعتها اجتماعية ولا يمكنها الاستغناء عن التفاعل والانفتاح عن الآخر، وكأن الفرد في حياته العامة يعيش حالة انفعال وتفاعل فيالوسط الاجتماعي الذي ينشأ فيه، إذ لا يمكن للذات معرفة نفسها وحقيقتها إلا من خلال أن تنظر للآخر على أنه الأنا والأنا هي الآخر، فعندما ندخل في غمار علاقات بنذاتية بيننا يتسنى لكل منا إدراك نفسه أكثر وأكثر وكأنما الآخر يكون بمثابة بوابة تنتقل من خلالها إلى ذاتنا الفعلية، ونفس الشيء ينطبق على الآخر في نظرتنا للأنا، وهنا

¹ - كمال بومير، النظرية النقدية لمدرسة فرانك فورت، ص 104.

تتحلى بوضوح فلسفة هيغل من خلال جدلية السيد والعبد والذي عبر عنه في كتابه فينومنولوجيا الروح بقوله: « فكل طرف هو الآخر حد أوسط، به يتوسط نفسه فيعترف بها، فكل ماهو لنفسه كما للآخر ماهية كائنة لذاتها في الحال لا نكون في الوقت نفسه لذاتها إلا بجمعية ذلك التوسط والطرفان يعترفان بنفسيهما من جهة اعترافهما ببعضها اعترافا متبادلا»¹.

غير أن استعارة هونيث هذا المفهوم من فلسفة هيغل لا يعني استعارته لنسقه الفلسفي كافة، بل حاول خلق نسق فلسفي خاص به يتلاءم مع توجهه الفلسفي الذي يعني بدراسة العلاقات الاجتماعية بوصفها علاقات تفاعل وتداوت، تفتح فيه كل الذات على الآخر في إطار من الاعتراف أساسه الاحترام والتقدير ورد الاعتبار للآخر من خلال الاعتراف المتبادل بينهم، وفي هذا تجاوز للتقليد الفلسفي الغربي الذي ساد في الحقل الفلسفي السياسي والأخلاقي السابق من أمثال مكيافلي وشعاره "الغاية تبرر الوسيلة" وهويز تحت شعار "الإنسان ذنب للإنسان" هذا التقليد الذي قام على أساس الصراع كمنطق وحيد سيله الحروب والنزاعات بين البشر.²

وهنا يتبين أن نظرية الاعتراف التي صاغها هونيث تهدف بالدرجة الأولى لتجاوز أطروحة قانون الصراع الذي هو الأصل قانون الغاب لا قانون الإنسانية، وبالدرجة الثانية تهدف إلى سد تلك الفجوة التي وقع فيها أنصار مدرسة فرانك فورت في جيلها الأول (هوركهايمو أدورنوا..) وجيلها الثاني (هايرماس وآبل..) وإن كان قد حافظ على نفس المنهج الذي اتبعته هذه النظرية ألا هو المنهج النقدي.

2- الاعتراف عند إكسلهونيث:

إن الحديث عن مفهوم الاعتراف عند إكسلهونيث يعني الحديث عن أحد أرقى الأساليب في الحياة والتي تجمع الأفراد فيما بينهم في أرقى مستوياتها العقلية والعاطفية فطبيعة الإنسان حاملة بالفطرة للعديد من

¹ - فردريك هيغل، فينومنولوجيا الروح، ترجمة: ناجي العوتلي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط01، 2006، ص 270.

² - كمال بومنيير، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، ص 105.

القيم السلبية كالأنانية وحب الذات والتسلط التي قد تقف حائلا دون تقدم البشرية ورفيها في حال لم يعرف الإنسان السبيل إلى تنظيمها حتى لا تقول كتبها، فعندما يطلق الإنسان العنان لشهوته وغرائزه على اختلافها سينشأ الصراع وتشب الحروب، فنصبح أمام صراع إنسان ضد إنسان، وهذا بالذات ما لا نريده أن يقع لأنه سيؤدي بالبشرية جمعاء نحو مستقبل نجهد رهاناته، وغير قادرين على التنبؤ بنتائجه الوخيمة وقدرها، وبالتالي فبدل من شحن الإنسان بتلك القوة السلبية نحاول تطويع الشخصية لقيم أكثر نبلا وإنسانية ولن يتحقق ذلك إلا من خلال تكريس فكرة الاعتراف في نفوسهم¹، ونشير هنا أنه إذا كانت منطلقات إكسلهونيث مستمدة من فلسفة هيغل "فينومينولوجيا الروح" التي أعادت الاعتبار للآخر أو للعلاقة التداوتية التي تربط الأفراد فيما بينهم فقد استند أيضا إلى مكتسبات ونتائج العلوم الاجتماعية (علم الاجتماع، علم النفس الاجتماعي التحليل النفسي) وهذا من خلال انفتاحه الفلسفي والعلمي على أعمال السوسولوجي الأمريكي هالبرت ميد (G.H.Med) والمحلل النفسي الإنجليزي رونالد نيكوت، وهذا الاستناد إلى تخصصات العلوم الإنسانية والاجتماعية جديد بل هو سمة من سمات أعضاء مدرسة فرانك فورت.

3- أشكال الاعتراف حسب هونيث:

تلعب التنشئة الاجتماعية دورا بالغ الأهمية في تكوين الذات وذلك من خلال علاقتها مع الآخر، فمن خلال التفاعل البنذاتي بين الأفراد تتمكن الذات من تكوين وعي خاص حول نفسها ومنه لا مجال لتحقيق ذاتنا وإدراك حقيقتها، إلا من خلال الاعتراف بالآخر، لأنه بمثابة وسيط تنتقل به لمعرفة ذاتنا وفهمها فهما حقيقيا وكأن هونيث في هذا المقام يقلب المبدأ السقراطي "اعرف نفسك بنفسك" فيحول هذا المبدأ إلى مبدأ جديد مفاده "اعرف نفسك من خلال الآخر" ومن أشكال الاعتراف التي صاغها هونيث ندرج ما يلي

أ- الحب:

¹ - علي حرب وآخرون، الفلسفة الغربية المعاصرة، ص ص 1591-1592.

يشير هونيث أن هناك علاقة متداخلة بين العلاقات العاطفية التي تربط الأفراد فيما بينهم وبين قدرة الأفراد على الشعور بقيمته أو بإمكانياته التي تجعله أكثر ثقة لا في نفسه فحسب بل حتى ثقته في الآخر وما العلاقة التي تربط الأم مع ابنها لخير دليل على ذلك فهي تمثل نموذج الاعتراف في أرقى مستوياته.¹

ب- الحق:

والحق عند هونيث يعني: « تلك الحاجات التي يتوقع الفرد تحقيقها بصورة مشروعة باعتباره عضواً كامل الحقوق، ومن حيث هو مشارك بقوة القانون في النظام المؤسسي، أما إذا حرم من هذه الحقوق أو بعضها، فهذا معناه أنه لم يعترف له بمسؤوليته الأخلاقية مثل أعضاء المجتمع»²، فكون الإنسان جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الذي يعيش فيه فهذا يجعله على ثقة كاملة أنه مثل البقية وله ما للبقية من الحقوق، ولكن في حال ما فقد هذا الفرد حقاً من حقوقه أو كلها، سيشعر بالتهميش والإهانة، وهذا ما يدفعه إلى محاولة إرغام للآخر بالاعتراف به، فالاعتراف يفضي إلى تقديم الحقوق فإذا اعترفت أنا بك كذات مستقلة وكيان خاص يفرض عني إلزاماً أن أقدم لك حقوقك وهنا يتجلى لنا تأثير علم النفس ودراساته في فكر هونيث.

ج- التضامن:

يعتبر هذا المفهوم من بين المفاهيم الإنسانية البحتة لأنه فعل يتطلب إرادة وعاطفة الآخر وعقلاً مفكراً ولذلك فد أولاه هونيث أهمية كبيرة في تأسيسه لنظريته الاجتماعية الخاصة بإتيقا الاعتراف.

فالأفراد يحصلون على التقدير الاجتماعي والأخلاقي بقدر ما يقدمونه وما ينجزونه من أعمال لها قيمة في نظر الآخرين³، وما له قيمة في نظر الآخرين هو ما يقدم مصلحة مشتركة للأفراد داخل منظومة اجتماعية معينة أو دولة معينة أو للعالم بأسره، حيث يقول هونيث في هذا الصدد: « تعتبر تجربة الاعتراف تجربة

¹ - علي حرب وآخرون، الفلسفة الغربية المعاصرة، ص 1594.

² - نقلاً عن: كمال بومنيير، النظرية النقدية لمدرسة فرانك فورت، ص 109.

³ - علي حرب وآخرون، الفلسفة الغربية المعاصرة، ص 1596.

أساسية بالنسبة للإنسان، فتحقيق علاقة ناجحة مع ذاته يحتاج المرء إلى الاعتراف التداوتي للإمكانيات والمؤهلات إن غاب أو انعدم هذا الشكل من الاستحقاق الاجتماعي فقد يصاب المرء بضرر نفسي ومشاعر سلبية كالغضب أو الإحباط على سبيل المثال¹.

ومن هنا يمكن القول أن إتيقا الاعتراف التي كانت عبارة عن عنوان طبع الفلسفة النقدية في جيلها الثالث ممثلها الرئيسي إكسلهونيث هذا الأمر برغم من تأثيره الكبير بفكر أستاذه هابرماس وأطروحة إتيقا المناقشة بوجه عام إلا أنه عاب عليها فكرتين محوريين تتمثلان في:

1- النموذج التواصلي عاجز في حقيقة الأمر عن تفسير التجربة المعاشة للأفراد بصورة شاملة و كلية²، باعتبار أن البراديغم التواصل براديغم قاصر في جوهره لأنه ركز على جانب واحد من جوانب التفاعل الاجتماعي ألا وهو اللغة، ذلك أن الظاهرة الاجتماعية وتفاعلاتها أكثر بكثير أن تحصر في سياق لغوي، ومن ثمة أصبح من الضروري إعادة النظر إلى هذا النموذج بغية توسيع لفهمنا للتجربة الأخلاقية التي يمر بها الأفراد، ولأن الظاهرة الاجتماعية أكبر من ذلك فلا بد لنا من البحث عن وسيلة أفضل تساعدنا على فهم أعمق.

2- أما التحفظ الثاني فيتمحور حول تجاهل هذه الإتيقا -إتيقا التواصل- إلى ما يسميه هونيث الطابع التنازعي أو الصراع الموجود أو السائد في بنية المجتمع والذي يحدد نمط الحياة الاجتماعية والأخلاقية التي تميزه³، ذلك أن المشكلات التي تعاني منها المجتمعات المعاصرة ليست مجتمعات مشكلتها التفاهم والوفاق بقدر ماهي مشكلة صراع بالدرجة الأولى وبالتالي: «ولأنه يتخذ مليا الوصول إلى فهم حقيقي للحياة الاجتماعية إلا كونها مجال المراعات والنزاعات الاجتماعية»⁴

¹ - نفسة، ص 1596.

² - كمال بومنيير، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، ص 122.

³ - كمال بو منير، النظرية النقدية لمدرسة فرانك فورت، ص 123.

⁴ - نفسة،الصفحة نفسها.

إن دراسة الحياة الأخلاقية وملاً الفجوة التي وقعت فيها المجتمعات الغربية بفعل عوامل متعددة، تعتمد في أساسها على عملية التذاوت الاجتماعي بغية منهم في تجاوز أطروحات الوعي المنغمسة في ذاتها التي كانت عنوان للفلسفات الكلاسيكية.

ومنه فإتيقا الاعتراف التي قدمها إكسلهونيث كبديل عن إتيقا المناقشة التي صاغها كل من آبل وهابرماس على وجه الخصوص، تقوم على توسيع مفهوم التواصل نفسه، وذلك من خلال الاعتراف المتبادل الذي يحدث في نسيج من العلاقات الاجتماعية¹، وذلك أن النظر إلى العلاقات البنذاتية بين الأفراد من منظور الاتفاق وتناسيا الصراع الذي يفرض نفسه أمر في غاية العجز والقصور، ثم إن اختزال هذه العلاقات في نسيج لغوي يقف حائلا أمامنا في فهم واقعنا الذي نجهد خيوطه الكثيرة.

وهنا يتجلى مفهوم الاعتراف في أن أعترف لك بحقك في هذه الحياة دون أن أجبرك على أن تكون مثلي، فما نسعى إليه من خلال الاعتراف أن يحسب كل فرد حسب إرادته ويعيش طموحاته الخاصة بفرديته وخصوصيته ولكن دون أن يعني هذا أن أفرض نفسي على الآخر بل يعيش كل حسب رغبته وإرادته، وهذا أصعب شيء لأن الحروب وكل العنف يتمثل في أنني أنا أريد، وكلما يذهب هيجل إلى القول أن أبحث عن اعتراف يصل في الأخير إلى حذف الآخر، لأن الآخر هو نفسه سيبحث عن اعتراف مقلوب.²

بناء على ما سبق التطرق إليه نصل إلى نتيجة مفادها أن التواصل كان بالفعل من أهم المحاور الفكرية التي شغلت مفكري النظرية النقدية في جيلها الثاني، باعتبار أن التواصل كان بمثابة الأداة المناسبة لسد الثغرة التي وقعت فيها الفلسفة النقدية في جيلها الأول، غير أن الجيل الثاني ومع أهم مثليه (هابرماس وصديقه آبل) لم يكتفوا بمجرد النقد، بل سعوا إلى تقديم البديل والمتمثل أساسا في العقل التواصلية، إذا فإن هذا العقل وحده القادر على سد الثغرات وملاً الفجوات الاجتماعية والأخلاقية التي يعاني منها الإنسان المعاصر على وجه

¹ - نفسه، ص 124.

² - محمد الصادق ملام، البشير ربوح، مجلة دراسات فلسفية، الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، العدد 2، جوان 2014، ص 110.

الخصوص، وذلك من خلال تحويل العقل الأداتي ونشاطه الاستراتيجي الموجه نحو تحقيق النجاح إلى عقل تواصلية ونشاطه الموجه نحو تحقيق التفاهم والإجماع بين الأطراف المتحاورون معتمدين في تأسيسهم هذا على مبدأ اللغة في بعدها التداولي، أو ما يعرف اليوم بالتداولية، لا لشيء سوى لأن اللغة هي في حقيقة الأمر أداة للتفاهم والتحاور بين الأفراد فهي أرقى أدوات التواصل على الإطلاق إذ لم تكن أوحدها.

غير أن الاتفاق العام بين أعضاء الجيل الثاني في إطار التواصل وحدوده لم يشمل بعض الجزئيات وأول خلاف كان بينهم -هابرماس وكال أوتو آبل- متعلق أساسا في التأسيس النهائي لهذا العقل -العقل التواصلي- فحين ذهب هابرماس أن التواصل لن يحقق مبتغاه أي التفاهم والاتفاق إلا في حال ما التزم الخطاب ذو الطابع العقلاني بجملة من الادعاءات الصلاحية والتي ينبغي للمشاركين في المناقشة البرهنة عليها أثناء الحوار والمناقشة باعتبار أن الحوار الذي نتحدث عنه ليس حوار متعاليا بل هو منبثق من الواقع من أطراف العالم المعيش الذي نحيا فيه بكل أبعاده ومرجعياته، إذا تلك الإدعاءات تتضح خلال المناقشة، غير أن صديقه الثاني كارل أوتو آبل رأى أن الأمر ليس كذلك حيث نجد ميل نحو فكرة التأسيس النهائي لهذا العقل -العقل التواصلي- لا لشيء إلا لأن راد موارد الاتفاق والتفاهم إلى عوامل تاريخية جائرة أو سوسيو-ثقافية، أمر يحمل في مضمونه النسبية والتغير وبالتالي علينا أن نرد موارد الاتفاق إلى العقل لأنه وحده القادر على تحقيق هذا التوافق والإجماع بين بني البشر على اختلاف الزمان والمكان فهو ثابت بثبات العقل.

إن إتيقا المناقشة كما تصورها هابرماس لا تهدف إلى تأسيس معايير مؤسسة بطريقة قبلية، وإنما تهدف عكس ذلك، إلى تأسيس شكل إجرائي يسهل انسيابية النقاش والحوار بغرض الوصول إلى نتائج محددة تلخص في قرارات مع ملاحظة في غاية الأهمية، وهي أن هذا النقاش نقاش حقيقي واقعي يدور حول مصالح حقيقية تمس البشر كما هي متجلية في واقعهم الاجتماعي التاريخي، وهنا مكمن الخلاف بين نزعة هابرماس الشمولية والنزعة الترسدنتالية لآبل.

غير أن النزعة الوثوقية في العقل التواصلي لم تتوانى حتى جاءت مقاربة جديدة تقدم مقابل ذلك طرحا بديلا ألا وهو أطروحة الاعتراف لممثلها الرئيسي إكسلهونيث، هذا الأخير الذي أكد على أنه لا بد لنا أن نكون أكثر عمقا وشفافية في نظرتنا لأمر واقعنا، إذ لا يمكن لنا على الإطلاق أن نتوهم وجود تواصل بين الأطراف هي بالأساس غير معترفة ببعضها البعض إذ أن المشكلة ليست مشكلة تواصل بقدر ماهي مشكلة اعتراف بالآخر واعتراف بالذات قبل كل شيء إذ من أشكال الاعتراف التي تطرق إليها إكسلهونيث "الحب" كأداة لتقوية العلاقات بين الأفراد وتعميقها إلى أكثر من كونها علاقات منفعة ومصلحة، "الحق" وباعتباره أداة يستطيع أن يشعر من خلالها الإنسان بالانتماء لتلك الجماعة وأنه جزء لا ينفصل عنهم، فله ما للجماعة من حقوق وبالتالي سيشعر بالرضى ويتجلى ذلك في مصداقية علاقاته مع الآخر والعكس صحيح.

"التضامن" وهو الآخر من أهم مبررات الاعتراف وذلك من خلال إبراز سمة التعاون مع الآخر والمساعدة على تقديم العديد من الأعمال التي تعود بالفائدة عليه وعلى المجتمع، فيرفع ذلك قيمته وسط أبناء مجتمعه وبالتالي سيثبت وجوده لنفسه وللآخر فيعترفون به كما يعترف هو بهم

إذن الجيل الثالث من مدرسة فرانك فورت تجاوز براديجم التواصل المعتمد أساسا على اللغة إلى براديجم الاعتراف الذي أساسه الحب والتضامن والحق.

خاتمة

بعد إنجاز هذا البحث المتعلق أساساً بموضوع "إتيقا المناقشة بين يورغن هابرماس وزميله كارل أتو آبل" يمكن أن نخرج بجملة من النتائج التي حاولنا جمعها من خلال الفصول التي قام عليها البحث، وتماشياً مع منطق الانسجام مع منهجية البحث العلمي، فإننا سنحاول في هذا المقام الإجابة عن الإشكالية التي تم طرحها في المقدمة.

لقد أمن كل من أنصار الجيل الثاني للنظرية النقدية أو رواد مدرسة فرانك فورت بأن التواصل هو المخرج الوحيد الذي لا بد من الاعتماد عليه حتى يستطيع الإنسان الغربي بل والحضارة الغربية أن تتدارك من خلال أخطائها وتتجاوزها إلى مرحلة أحسن، وإذا كانت الحداثة الغربية مشروع تنويري لم يكتمل فإن التواصل هو السبيل الأمثل الذي ينبغي لرواد الحداثة أن يتبعوه حتى تكمل مسارها في الاتجاه الصحيح.

إن النشاط التواصلي نشاط إنساني بحت، ومبدأ من مبادئ الإنسان العاقل، ومنه تنبثق القيم الأخلاقية الأخرى، فإنه في الوقت نفسه ليس نشاط عشوائياً، ينخرط فيه الأفراد دون الالتزام بأية ضوابط أخلاقية، بل على العكس لا يمكن الحديث عن التواصل إلا في إطار ما يعرف بإتيقا المناقشة، والتي تحيل بدورها إلى جملة الضوابط الأخلاقية التي يلتزم بها كل أطراف العملية التواصلية في نقاشهم وحوارهم.

يعتمد التواصل بصورة أساسية على اللغة أو الخطاب كأداة أولى للتواصل أو الدخول في غمار المناقشة فقد استند كارل أتو آبل كما هو الأمر عند يورغن هابرماس إلى المنجزات الحاصلة على مستوى اللغة ومحاولة النظر إليها كأداة خادمة للتواصل، ولكن من خلال تحويلها من مستوى الخطابات النظرية كأداة للتعبير إلى مستوى آخر هو المستوى التداولي، الذي ينظر إلى اللغة في بعدها التداولي الاستخدامي بين الأفراد وربطها بالأفعال فتصبح الأقوال تنجز أفعالاً على أرض الواقع.

سعى كل من آبل وهابرماس إلى إخضاع خطابات والقضايا التي تتضمنها إلى جملة من المعايير والافتراضات التي لا بد من أن يلتزم بها كل متحاور في تقديمه لخاطبه داخل المناقشة أو الحوار وتمثل هذه

المعايير في (المصدقية، الصدق، الدقة، العقلانية) وأن الأفراد ملزمون بتقديم هذه الإدعاءات على كل ما يقولون، وأي رفض لمعيار من هذه المعايير يعني خروج الإنسان من مصاف الكائنات العاقلة.

أراد كل من آبل وهايرماس من خلال هذه التداولية التي تم تأسيسها من قبلهما رفض مبدأ الأوامر الأخلاقية والخطابات التقليدية القائمة على أسس ضعيفة وهشة يمكن هدمها في أي وقت، واستبدالها بقوة الحججة والبرهان، فلا سبيل إلى تحقيق التوافق والاتفاق بين المتحاورين دونهما، فالحجة والبرهان الأقوى هما الآلية الوحيدة التي يمكن اعتمادها حتى نحقق حوار خالي من كل أساليب العنف والاستبداد، إذ لا مجال لاستخدام القوة أو التسلط أمام سلطة البرهان والحجة، بل تصبح هذه الأخيرة هي الكلمة الأولى والأخيرة، فنحن نفتنح بالأفكار والأطروحات المقدمة في النقاشات بناء على الحججة وحدها بل وقد تتبناها، لا على قوة أو سلطة المتكلم مهما كانت مرجعيتها سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية.

غير أن اتفاق آبل مع زميله هايرماس لم يمتد إلى حد التطابق، فإذا كان اتفاقهما حول أهمية اللغة ودورها في تحقيق التواصل الفعال وأهمية التزام خطاباتنا بالمعايير سألغة الذكر، فإن اختلافهما كان قائما بشكل أساسي حول طبيعة هذه الافتراضات في حد ذاتها، فحين ذهب يورغنهايرماس إلى اعتبار أن هذه الافتراضات تعود من حيث طبيعتها إلى طبيعة اجتماعية، حيث يتعلمها الإنسان ويتدرب على استخدامها من خلال التنشئة الاجتماعية مستندا في ذلك على الأبحاث المعاصرة في مجال علم النفس في إطار تلك المناقشات إلا أننا نجد أن آبل قد نحي منحى آخر، حين نظر إلى طبيعة هذه الافتراضات أو الشروط التي يلتزم المتحاورون بها إلى طبيعة ترسنتالية متعالية، أي من طبيعة قبلية، وذلك تيمنا بالأخلاق الكانطية، فإذا كان كانط يبحث عن الشروط الضرورية قبلية للمعرفة، فإن آبل كان يبحث عن الشروط الضرورية التي تحكم إتيقا المناقشة، وبالتالي يكون الخلاف بين تداولية آبل الترسنتالية وتداولية هايرماس الشكلية بمثابة ذلك الخلاف القائم بين المثالي والواقعي أو بين السيبي والمطلق.

فأبل عندما رد طبيعة هذه الافتراضات إلى شروط قبلية متعالية كان ذلك بهدف منحها فكرة التأسيس النهائي الغير قابل للتغيير أو التعديل فهي باعتقاده منزه عن نسبية الواقع الاجتماعي، فهي افتراضات مطلقة يلتزم بها الأفراد الذين ينتمون إلى الجماعة العاقلة إلزاما ضروريا لا مناص منه، فهي مطلقة بمطلقه العقل ذاته، وثابتة بثباته.

ولأن النقد سمة من سمات الفكر الفلسفي، فقد تعرضت أطروحة إتيقا المناقشة هي الأخرى للعديد من الانتقادات منها أنه لا يمكن الاعتماد على اللغة كأداة للتواصل والوقوع في تلك النزعة الوثوقية بها، فهي كما يمكن أن تكون أداة للتفاهم والاتفاق يمكن لها كذلك أن تكون سببا فيخلق المشاكل والخلافات بين الأفراد، كما أن الأفراد قد يتظاهرون بالتزامهم بتلك المعايير وأن غايتهم هي الوصول إلى تحقيق الاتفاق، إلا أن ذلك لا يثبت في حقيقة الأمر صدق نواياهم ومقاصدهم التي قد تحمل من الخبث والعبث أكثر مما تتصور، مما يظهر جليا أن الحالة المثالية للكلام والتي جعلها كل من آبل وزميله هابرماس مطلبا لهما، صعبة التحقق على أرض الواقع وبالتالي سوف تبقى مجرد تصورات حبيسة الذهن، وهذا ما جعل منتقدي هذه الأطروحة ينعتونها بالمثالية.

ولعل من أبرز نماذج الانتقاد والتجاوز لإتيقا المناقشة، وإن كان هذا الانتقاد لا يعني بطبيعة الحال القطيعة بقدر ما هو تقييم وتقويم لها، نجد طرح إكسلهونيث هذا الأخير الذي تجاوز طرح أستاذه هابرماس وزميله آبل بطرح آخر أكثر واقعية ينطلق هذا الطرح من منطق الصراع من أجل الاعتراف، مما يدل أن التعارف هو مبدأ سابق من حيث ماهيته عن منطق التواصل والمناقشة بل هو الأكثر فاعلية في سبيل تحسين الأوضاع المعاصرة وإخراج الحضارة الغربية من أزمتها أزمة التقطع والانفصال التي آلت إليها، فالاعتراف يعني أن أعترف بوجودك قبل كل شيء كذات مستقلة وحاملة لهوية وشخصية فريدة، ومستقلة عن أي سلطة ثم يأتي التواصل كآلية لتكريس مبدأ الاعتراف وليس كمقدمة تنطلق منها لتأسيس روح فلسفة بنذاتية تؤمن بالتفاعل بين الأنا والآخر.

قائمة المصادر والمراجع

أولا/ المصادر:

- 01- كارل أوتو آبل، التفكير مع هابرماس ضد هابرماس، تر: عمل مهيبيل، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط01، 2005م.
- 02- يورغنهابرماس، إتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، ترجمة عمر مهيبيل، منشورات الاختلاف، ط1، 2010.
- 03- يورغنهابرماس، القول الفلسفي للحدائثة، تر: فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، 1995م.
- 04- يورغنهابرماس، المعرفة والمصلحة، ترجمة حسن صقر، منشورات الجمل، ألمانيا، ط1، 2001.
- 05- يورغنهابرماس، مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة لبرالية، ترجمة جورج كثورة، مراجعة أنطوان الهاشم، المكتبة الشرقية، لبنان، ط01، 2006.

ثانيا/ المراجع:

- 1- أبو النور حمدي أبو النور حسن، يورغنهابرماس: الأخلاق والتواصل، دار التنوير، لبنان، ط01، 2012م.
- 2- الدراجي زروخي، المذاهب الفلسفية الكبرى، من سؤال المعرفة إلى سؤال القيم، دار صبحي للطباعة و النشر، غرداية، ط1، 2015.
- 3- امانويلكانط، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة: عبد الغفار مكاوي، منشورات الجمل، ألمانيا، ط1، 2002.
- 4- أن روبول، جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس، محمد الشيبيا، مراجعة: لطيف زيتوني، دار الطليعة للطباعة والنشر-لبنان، ط01، 2003.
- 5- أيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونس إلى هابرماس، تر: محمد حسين غلوم، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دط، 1999م.
- 6- جاكلين روس، الفكر الأخلاقي المعاصر، تر: عادل العوا، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، ط01، 2001م.
- 7- جان بول ريزغبر، فلسفة القيم، ترجمة عادل العوا، دار عويدات للنشر والطباعة، لبنان، ط1، 2001.
- 8- جان مارك فيري، فلسفة التواصل، ترجمة وتقديم، عمر مهيبيل، الناشر: منشورات الاختلاف. الجزائر، المركز الثقافي العربي، لبنان، الدار العربية للعلوم-لبنان، ط01، 2006.
- 9- جون ليشته: خمسون مفكرا أساسيا معاصرا، تر: فاتن البستاني، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط01، 2008.

- 10- جيمس جوردن فينيلسيون، يورغنهايرماس: مقدمة قصيرة جدا، ترجمة أحمد محمد الروبي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، ط1، 2005.
- 11- حافظ إسماعيل علوي وآخرون، التداوليات: علم واستخدام اللغة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2001.
- 12- حسن مصدق، مدرسة فرانك فورت النقدية، المركز الثقافي المغربي، ط01، 2005م.
- 13- سعيد توفيق، في ماهية اللغة وفلسفة التأويل، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2001م.
- 14- طه عبد الرحمان، تعددية القيم: ما مداها؟ وما محدوديتها؟ كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش، ط1، 2001.
- 15- عبد القادر الشبخلي: أخلاقيات الحوار، دار الشروق، الأردن، ط01، 1993م.
- 16- عبد القادر بليمان، دراسات فلسفية في الأخلاق والسياسة، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، ط1، 2012.
- 17- عبد القادر بليمان، الأسس العقلية للسياسة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 2007.
- 18- عطيات أبو سعود، الحصاد الفلسفي للقرن العشرين، شركة الجلال للطباعة، الإسكندرية، ط1، 2002م.
- 19- علي حرب وآخرون، الفلسفة الغربية المعاصر، ج2، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013.
- 20- علي عبود المحمداوي وآخرون، مدرسة فرانكفورت النقدية، دار الندم للنشر والتوزيع، الجزائر، دار النوافذ الثقافية، لبنان، ط1، 2012.
- 21- فريديريك هيجل، فينومنولوجيا الروح، ترجمة: ناجي العوتلي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط01، 2006.
- 22- فيل سليتر، مدرسة فرانك فورت، نشأتها ومغزاهما أو جهة نظر ماركسية، ترجمة جليل كلفتنا، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط02، 2004.
- 23- قليب كابان، جان فرانسوا دورتيه، مع الإجماع: من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية، ترجمة: إلياس حسن، دار الفرنقد، ط01، 2010.
- 24- كارل بوبر، منطق الكشف العلمي، ترجمة ماهر عبد القادر محمد، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، د.ت.
- 25- كمال بومنير، النظرية النقدية لمدرسة فرانك فورت: من ماكس هوركهايمر إلى إكسلمونيننت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط01، 2010م.
- 26- لطفي الحجلأوي، فلسفة التربية، الإشكالية الراهنة، دار التنوير، الجزائر، ط1، 2009.

- 27- لودفيج فيتجنشتين، بحوث فلسفية، ترجمة عزمي إسلام، مراجعة و تقديم عبد الغفار مكاوي، جامعة الكويت.
- 28- ماكس هوركهامر، تيودور أدورنوا، جدل التنوير، ترجمة: جورج بطرس كتورة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، لبنان، ط1، 01، 2003.
- 29- مجدى عبد الحافظ، موقع العقل في فلسفات ما بعد الحداثة، مجلة عالم الفكر، العدد الثاني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2012م.
- 30- محمد سيلا وعبد السلام بن عبد العالي، دفاتر فلسفية، دار توفال للنشر، المغرب، ط4، 2005.
- 31- محمد سيلا، مدارات الحداثة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، لبنان، ط1، 01، 2009م.
- 32- محمد عابد الجابري وآخرون، التواصل: نظريات وتطبيقات، الكتاب الثالث، سلسلة فكر ونقد، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، لبنان، ط1، 2010.
- 33- محمد نور الدين آفاية، الحداثة والتواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، نموذج هابرماس، إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 02، 1998م.
- 34- منى أبو الفضل وآخرون، الحوار مع الغرب: آلياته - أهدافه - دوافعه، دار الفكر، دمشق، ط1، 01، 2008م.

ثالثا/ المعاجم والموسوعات:

- 1_ ابن منظور، لسان العرب، ج3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1999.
- 2_ أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 02، 2001م.
- 3_ بيتركونزمان وآخرون، أطلس الفلسفة، تر: جورج كتورة، المكتبة الشرقية، لبنان، ط2، 02، 2007م.
- 4_ جمبيلصيا، المعجم الفلسفي، الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 01، 1982م.
- 5_ مصطفى حسيبة، المعجم الفلسفي، دار أسامة، عمان، ط1، 2009

رابعا/ المجالات والدوريات:

- 1- شريفي أنيسة، فلسفة أخلاقيات الحوار عند هابرماس، مجلة الحوار الثقافي، مخبر حوار الحضارات، العدد 9، 2016.

- 2- عبد الحليم بن عيسى، المرجعية اللغوية في النظرية التداولية، مجلة دراسات أدبية، مركز البصيرة للبحوث والاستشارات، العدد الأول، الجزائر، 2008.
- 3- عبد الرزاق الدواي، الفلسفة في عهد العولمة، وتكنولوجيا المعلومات والاتصال الجديدة، مجلة علم الفكر، العدد الثاني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، 2012.
- 4- عبد القادر تومي، من ثقافة الحوار إلى واقع الصراع في زمن العولمة، مجلة الحكمة، العدد التاسع، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، 2011م.
- 5- عبير سعد، أخلاقيات المحاجة، مجلة الاستغراب، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، العدد 4، 2016.
- 6- محمد الصادق ملام، البشير ربوح، مجلة دراسات فلسفية، الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، العدد 2 جوان 2014.
- 7- محمد بوحجلة، الحوار الفلسفي بين يورغنهابرماس و كارل إيتو آبل حول تطبيق إتيقا النقاش، مجلة الحوار الثقافي، مخبر حوار الحضارات، عدد 9، 2016.

المذكرات:

- 1- جميلة حنيفي، من الحدائث إلى المعقولية التواصلية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الفلسفة، جامعة الجزائر، 2011_2012.
- 2- حيدرة فتيحة، نظرية الفعل التواصلية عند يورغنهابرماس، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، الفلسفة، عمر مهيبيل، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الجزائر، 2007_2008.
- 3- فوزية شرا، فلسفة اللغة عند يورغنهابرماس، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، العلوم في الفلسفة، إشراف: فريدة غيو، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة 2009-2010.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

الصفحة

الموضوع

شكر

إهداء

أ- هـ

المقدمة

الفصل الأول: إتيقا المناقشة عند يورغنهابرماس

08	المبحث الأول: اللغة كآلية للحوار وأداة للتفاهم.....
08	أولا/ ضبط المفاهيم:.....
08	1- مفهوم الحوار: (Dialogue).....
09	2- مفهوم التواصل (Continuité).....
11	3- التواصل في الحضارة الغربية:.....
16	ثانيا: اللغة كأداة للتفاهم.....
25	المبحث الثاني: في إطار التداولية الشاملة (الصورية).....
26	أولا/ إدعاءات الصلاحية.....
29	ثانيا: شروط التداولية الصورية.....
33	المبحث الثالث: أخلاقيات النقاش وعقلنة العالم المعيش.....
34	أولا: شروط العملية التواصلية.....
36	ثانيا: العالم المعيش في إطار التداولية الصورية.....
39	ثالثا: بنيات العالم المعيش.....

الفصل الثاني: إتيقا المناقشة عند كارل أتو آبل

44	المبحث الأول: المرجعية الفكرية لأخلاقيات المناقشة عند كارل أتو آبل
44	أولاً: آبل وموقفه من الفلسفات السابقة عليه
46	1- الفلسفات العملية:
47	2- الفلسفة الوجودية والوضعية:
49	3- الفلسفة الكانطية:
51	ثانياً: التداوليات اللسانية كرافد في بناء التداولية الترسدنتالية:
52	1- المنعرج الغوي:
54	2- الفلسفة التحليلية:
57	المبحث الثاني: أخلاقيات المناقشة من ترسدنتالية الوعي الذاتي إلى ترسدنتالية التواصل البنذاتي:
57	أولاً: تجاوز الفلسفة الكانطية:
59	ثانياً: أشكال التواصل عند آبل:

60	ثالثا: تأسيس التداولية التروندنتالية.
69	المبحث الثالث: موقف كارل أوتو آبل من العقلانية النقدية.....	
69	أولا: المناقشة من منظور العقلانية النقدية.
71	ثانيا: آبل ناقدا للعقلانية النقدية.
71	ثالثا: الافتراضات المحاجة في مستوياتها الثلاث.
74	رابعا: البدهة المعرفية في إطار التداولية التروندنتالية.

الفصل الثالث: هابرماس في فضاء كارل أوتو آبل

81	المبحث الأول: كارل أوتو آبل مؤيدا	لهابرماس
86	المبحث الثاني: كارل أوتو آبل ناقدا	لهابرماس
93	تقييم عام:	
96	المبحث الثالث: من إتيقا المناقشة إلى إتيقا الاعتراف.	
96	أولا: مدرسة فرانك فورت.	
96	1- نقد العقل الأداتي:	
98	2- إتيقا المناقشة كمنخرج من أزمة الحداثة:	
99	3- إتيقا المناقشة في الميزان:	
101	ثانيا: إتيقا الاعتراف كتجاوز لإتيقا المناقشة.	

101	1- تأسيس إتيقا الاعتراف:.....
103	2- الاعتراف عند إكسلهونيث:.....
104	3- أشكال الاعتراف حسب هونيث:.....
113-111	خاتمة.....
118-115	المصادر المراجع.....
122-120	فهرس المحتويات.....

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

